

2me Année, No. 73.

بدل الاشتراك عن سنة

م	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

. Lundi-26-11-1934

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم { ٤٢٣٩٠ / ٤٠٥٣٠

العـــدد ٧٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٨ شعبان سنة ١٣٥٣ — ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

عهدٌ وأى عهـــــد ! !

كان كرِعْدة الحمَّى ، أو كرجْفة الزلزال ، أخذ هذا البلد المسكين زهاء أربع سنين ، فكدَّر من طبعه ، وغيَّر من وضعه ، وبدد من نظامه !

هل تخيَّلتَ الجنة وقد اتسق فى ظلالها الخفض ، واطَّرد فى مياهها النعيم ، وانبلج فى أجوائها الأنس ، وانبسط على أرجائها السلام ، يقتحمها شياطين الجحيم عَنوة ، فيجعلون ظلها حَروراً ، وماءها مُهلاً ، وأنسها وحشـــة ، وسلامها فتنة ؟ ذلك مثل النيل وواديه قبل هذا العهد الذميم وبعده !

كانت البلاد تسير مع الزمن إلى الأمام ، وتتدرج مع الطبيعة فى النمو ، وتتوثب مع الحق على العدو ، فنجم فيها ناجم من الشر اعترض طريقها اعتراض اللص ، ثم أثار فى وجوهها الرعب فانكفأت إلى الخلْف ، وامتحن قلوبها بالبطش ففزعت إلى الصبر ، وسلط على مُترفيها المُنى فقروا على الرِّيَب ؛ وراح الذئب المقنَّع أو الطاغية الكاذب يعيث فى كل ديوان ، و يفتك فى كل

مكان ، ويختل فى كل جماعة ، حتى عطّل سلطة الأمة ، وأبطل سطوة القانون ، وقوض ركن الفضيلة .

* * *

تناصرت أبالسة الظلم والظلام على مشاعر هذه الأمة فتركوها من الدسائس والمواجس والأوهام فى مثل الدجى الحالك ، تقتل نفوسها ويقولون إنها تجاهد ، وتركب رءوسها ويعلنون أنها تسير ، وتضطرب فى شقائها اضطراب الذبيح ويوهمون أنها تحيا ؛ ثم رصدوا خزانة الدولة وجنودها وشُرَطها وموظفيها لإقرار الشعب على الضيم ، ورياضته على الاستكانة ، فنسى الجندى أنه حُشد لمدافعة العداة ، والشُّرْطى أنه رُصد لمراقبة الجناة ، والموظف أنه أُعِدّ لتصريف الأمور ، ووقفوا جهودهم على قطع هذا الشارع فلا يعبره عابر ، وحصر هذا البيت فلا يزوره زائر ، وتعهُّد هذا المحالف فلا يُخْلفُه بِر ، وتعقّب ذاك المخالف فلا يُفلته أذى ! !

ثم انتشر الوعيد والوعد فى جنبات النفوس يستنزلانها عن الخُلق ، ويفتنانها عن العقيدة ، ويغريانها بالعدالة ، ويحرضانها على الصداقة ، حتى اشتبه الوفاء ، واتُّهم القضاء ، ومرضت الأهواء ، وانقطعت الأسباب بين المرء وصاحبه ، وانفرجت الحال بين الرجل وواجبه ؛ وكل ذلك لتُثْرِىَ جماعة ويتسلط فرد ! !

* * *

لا لِله ولا للوطن كانت هـذه المحنة ! إنما كانت نزوة رَعْناء من بغى الانسان على الانسان ! والناس لا يزالون كما كانوا فى الدهر الأول يسرقون ليأكلوا ، ويقتلون ليعيشوا ، ويستعبدون ليسودوا ، ويستبدون ليحكموا ، لا يحمى الفردَ من الفرد قانون ، ولا يعصم الأمةَ من الأمة معاهدة ! أما الدين والمدنية والعلم والأدب والفن والأنظمة فغطاء ذهبى على الناب ، وطلاء وردى على المخلب !

* * *

على أن ضعف الشعوب خَدّاع ! لأنه قُوًى متفرقة فى نفوس متفرقة ، فاذا ما تجمَّعت ذات مرة حول القوة الزعيمة الملهمة ، كانت هى الرجفة التى تهز الأرض من حين الى حين ، وتنقل التاريخ من فصل الى فصل !

ولكن ابن آدم سَهْوان : يُذهله لجب السلطان عن صوت العبَر ، كما يذهله غرور الحياة عن يقين الموت ! فلا يفيق من سكرة الدنيا إلا بوكزة الداء ، ولا من سَوْرة الحكم إلا بسقطة الوزارة !

* * *

سيتحرّج التاريخ من تسجيل هذا العهد وإن سجل كثيراً من أمثاله ! لأن المظنون أن العالم يتقدم ولا يتأخر ، ويترقى ولا ينحط ؛ فكيف يجد المعاذير لقطعة من الأرض يعزلها سارقوها عن الوجود الحاضر ، ثم يحاولون أن يضربوا الأسداد بينها وبين الحرية والديمقراطية ، فلا ترى سيادة هذه ولا تسمع أناشيد تلك ؛ ولكن التاريخ لا ينسى — وإن نسىَ الناس — أن للنظام العالمى جاذبية تجذب المتخلف ، وللعدل الالهى صيحة تُسمع الأصم ، وللشعب الوديع حيوية يَقْظى تعود بالمبطل صاغراً الى الحق ، وتُفىء بالحق السليب موفوراً الى أهله !

* * *

حنانيك يارب ! لقد تألمنا حتى أشفق الألم ، وصبرنا حتى جزع الصبر ، وضحينا حتى أصبحنا كلنا ضحايا ! ! فعسى أن يشاء عدلك وتريد رحمتك ألاّ نقاسىَ مثل هذا العهد ، وألا نعانىَ مثل هذه التجربة ، وألا نكابد مثل هذا البلاء !

* * *

الآن أصبح الليل ، وانجلت الغمة ، وتهتكت سدول الظلام عن السماء الواعدة ، والضياء الهادى ، والأفق الممتد ، والطريق القاصد ! فهل ترتد الشياطين إلى قماقم سليمان ، وترجع الخفافيش إلى حوالك الغيران ، ويستقيم القوم على عمود رأيهم حتى يلحقوا الناس ويدركوا الغاية !

احمد حسن الزيات

الأجنبيّة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أَحبّها وأحبّته ، حتى ذهب بها فى الحب مَذْهباً قالت له فيه : « لو جاءنى قلبى فى صورة بَشَرِيّة لأراه كما أُحِسُّه ، لما اختار غيرَ صورتك أنتَ فى رقّتك وعطفك وحنانك . »

وحتى ذهبتْ به فى الحب مذهباً قال لها فيه : « إن الجنة لاتكون أبدعَ فناً ، ولا أحسنَ جمالاً ، ولا أكثر إمتاعاً لو خُلِقَت امرأةً يهواها رجل ؛ إلا أن تكون هى أنتِ . »

فقالت له : « ويكونَ هو أنتَ . . . »

وتَدَلَّهتْ فيه ، حتى كأنما خَلَبها عقلَها ووضع لها عقلاً من هواه ؛ فكانت تقول له فيما تَبُثُّه من ذاتِ نفسها : « إن حبَّ المرأة هو ظهورُ إرادتها مُتبَرِّئةً من أنها إرادة ، مُقِرَّةً أنها مع الحبيب طاعةٌ مع أمر ، مُذْعِنَةً أنها قد سلّمت كبرياءَها لهذا الحبيب ، لتراه فى قوّته ذا كبريائين . »

وافتتن بها حتى أخذتْ منه كلَّ مَأخَذ ، فملأتْ نفسَه بأشياء ، وملأت عينَه من أشياء ؛ فكان يقول لها فى نجْواه : « إنى أرى الزمَن قد انْتَسَخَ مما بينى وبينك ، فانما نحن بالحب فى زمنٍ من نَفْسَيْنا العاشقتين لا يُسمَّى الوقتَ ولكن يسمَّى السرور ، وإنما نعيشُ فى أيام قلبيّةٍ لاتدلُّ على أوقاتها الساعةُ بدقائقها وثوانيها ، ولكنِ السعادةُ بحقائقها ولذّاتها . »

وتحابّا ذلك الحبَّ الفَنِّيَّ العجيبَ الذى يكون ممتلئاً من الروحين يكاد يَفيضُ وينسكب ، وهو مع ذلك لا يَبرحُ يطاب الزيادة ، ليتخيّل من لذتها ما يتخيّلُ السكّيرُ فى نَشْوته إذا طفحت الكأس ، فيرى بعينيه أنها ستتّسع لأكثرَ مما امتلأتْ به ، فيكونُ له بالكأس وزيادتها ، سُكْرُ الخمرِ وسكرُ الوهم

تحابّا ذلك الحبَّ الفَوّار فى الدم ، كأن فيه من دَوْرته طبيعةَ الفراقِ والتلاقى ، بغير تلاقٍ ولا فراق ؛ فيكونان معاً فى مجلسهما الغَزَلىِّ ، جَنْبَهُ إلى جنبها وفَاهُا إلى فيه[(١)] وكأنما هَرَبَتْ ثم أدْرَكَها ، وكأنما فَرّتْ ثم أمْسَكَها . وبين القُبْلَةِ والقُبلة هِجرانٌ وصلح ، وبينَ اللَّفْتَةِ واللَّفتة غَضَبٌ ورضى

وهذا ضَرْبٌ من الحب يكون فى بعض الطبائع الشاذّة المُسْرِفة التى أفرطتْ عليها الحياةُ إفراطها فَبالغَتْ الحيوانيّةَ بالانسانية ، ويجعلُ الرجلَ والمرأةَ كبعض الأحماض الكيماوية مع بعضها ؛ لا تلتقى إلا لتتمازج ، ولا تمازجُ إلا لتتّحد . ولا تتحدُ إلا ليبتلعَ وجودُ هذا وجودَ ذاك

***

وضَرَبَ الدهرُ من ضَرَباتِه ، فأبغضتْه وأبغضها ، وفَسَدَتْ ذاتُ بينهما ، وأدبرَ منهما ماكان مُقْبِلاً ؛ فوَثَبَ كلاهما من وجود الآخر وَثْبةَ فَزَعٍ هارباً على وجهه . أما هو فَسَخِطَها لعيوب نفسها ، وأما هى . . . وأما هى فتكرّهته لمحاسنِ غيره . وانْسَرَبَتْ أيامُ ذلك الحب فى مَسَارِبها تحت الزمن العميق الذى طَوَى ولا يزالُ يَطْوِى ولا يبرحُ بعد ذلك يطوى ؛ كما يغور الماءُ فى طِباق الأرض .

فأصبح الرجلُ المسكين وقد نزلتْ تلك الأيامُ من نفسه منزلةَ أقاربَ وأصدقاءَ وأحِبّاءَ ماتوا بعضُهم وراءَ بعض ، وتركوه ولكنهم لم يبرحوا فِكْرَه ، فكانوا له مادّةَ حسرة ولَهْفة .

أما هى . . . أما هى فانشقَّ الزمنُ فى فكرها برَجّةِ زلزلة ، وابتلع تلك الأيامَ ثم التأم . . . !

***

حدّثنا « الدكتور محمد » رئيس جماعة الطلبة المصريين فى مدينة . . . بفرنسا ، قال : وانتهى إلىّ أن صاحبنا هذا جاء إلى المدينة ، وأنه قادمٌ من مصر ، فتَحَلّبَنى الشوقُ إليه ، ونزعتْ إلى لقائه نفسى ، وما بيننا إلامعرفتى أنه مصرىٌّ قَدِمَ من مصر ؛ وخُيِّل إلىّ فى تلك الساعة مما أهاجنى من الحنين إلى بلادى العزيزة ، أن ليس بينى وبين مصرَ إلا شارعان أقطعُهما فى دقائق ؛ فخففتُ إليه من أقرب الطرق إلى مثواه ، كما يصنع الطير إذا ترامى إلى عُشّه فابتدرَهُ من قُطْرِ الجوّ

(١) تأويل هذا فى باب (الحال) عند ظرفاء النحويين : متلاصقين متعانقين

قال : وأصبتُه واجماً يعلوه الحزن ، فتعرّفتُ إليه فما أسرع ما ملأ من نفسى وما ملأتُ من نفسه . وكما يمحى الزمانُ بين الحبيبين إذا التقيا بعد فرقة — يتلاشى المكانُ بين أهل الوطن الواحد إذا تلاقوا فى الغربة . فذابت المدينةُ الكبيرةُ التى نحن فيها ، كأنْ لم تكن شيئاً ، وتجلّى سحرُ مصر فى أقوى سطوته وأشدها ، فأخذنا كلينا فما استشعرنا ساعتئذ إلا أن أوروبا العظيمة كأنما كانت مرسومةً على ورقة ، فطويناها وأحللنا مصرَ فى محلها

وطغى علينا نازعُ الطرب طغياناً شديداً ، فأرسلتُ من يجمع الاخوانَ المصريين ، واخترتُ لذلك صديقاً شاعرَ الفطرة ، فنزا به الطربُ ، فكان يدعوهم وكأنه يؤذّن فيهم لاقامة الصلاة . وجاءوا يُهرولون هرولةَ الحجيج ، فلو نطقتْ الأرضُ الفرنسية التى مشَوا عليها تلك المِشْيةَ لقالت : هذه وطأةُ أسودٍ تتخيل خيلاءَها من بَغْىِ النشاط والقوة

ألا ما أعظمكِ يامصر ، وما أعظمَ تمنّتكِ فى هذا السحر الفاتن ! أينبغى أن يغتربَ كلُّ أهلك حتى يدركوا معنى ذلك الحديث النبوىّ العظيم « مصرُ كنانةُ الله فى أرضه . » فيعرفوا أنك من عزّتك معلّقةٌ فى هذا الكون تعليقَ الكنانة فى دار البطل الأروع ؟

قال « الدكتور محمد » : واجتمعنا فى الدار التى أنزل فيها ، فراع ذلك صاحبةَ مثواى[1] ، فقلت لها : إنّ ههنا ليلةً مصرية ستحتلُّ ليلتكم هذه فى مدينتكم هذه ، فلا تجزعوا . ثم دعوتها الى مجلسنا لتشهدَ كيف تستعلنُ الروحُ المصرية الاجتماعية برقتها وظرفها وحماستها ، وكيف تفسّر هذه الروحُ المصريةُ كلَّ جميلٍ من الأشياء الجميلة بشوقٍ من أشواقها الحنّانة ، وكيف تكون هذه الروحُ فى جوّ موسيقيّتها الطبيعية حين تناجى أحبابها ، فيجىء حديثُها بطبيعته كأنه ديباجةُ شاعرٍ فى صفائها وحلاوتها ورنين ألفاظها ؟

(١) صاحبة المثوى هى ربة البيت الذى ينزل فيه الضيف ومن كان فى حكمه ، يقول العربى : من كانت صاحبة مثواك ؟ فتطلق على صاحبة البنسيون

وقالت السيدة الظريفة : يالها سعادة ! سأتخذُ زينتى ، وأصلح من شأنى ، وأكون بعد خمس دقائق فى مصر !

قال الدكتور : وأخذنا فى شأننا ، وكان معنا طالبٌ حسن الصوت فقام الى البيانة[1] وغنى مقطوعة « طقطوقة » مصرية من هذه المقاطيع التى تُطقطقُ فيها النفس ، فجعل يَمطُلُ صوته بآه ، وآه ، ودار اللحنُ دورةً تأوّهتْ فيها الكلماتُ كلُّها . ثم اعتورَ البيانةَ طالبٌ آخر فما شذّ عن هذه السنّة ، وكان بعد الأول كالنائحة تُجاوب النائحة . فمالت علىّ السيدة الفرنسية وأسرّتْ إلىّ : أهاتان امرأتان أم رجلان ... ؟ فقلت لها : إن هذا لحنٌ تاريخى ذو مقطوعتين كانت تتطارحه كيلوباترة وأنطونيو ، وأنطونيو وكيلوباترة . فأعجبت المرأة أشد الأعجاب ، وأكبرتْ منا هذا الذوقَ المصرىّ أن نكرمها لوجودها فى مجلسنا بألحان الملكة المصرية الجميلة ، وطربتْ لذلك أشدَّ الطرب ، وملكها غرُور المرأة ، فجعلت تستعيد « يالوعتى ، ياشقاى ، ياضنىَ حالى . . . » وتقول : ماكان أرقّ كيلوباترة ! ماكان أرقّ أنطونيو ! يالفتنةِ الحب الملَكى !...

قال « الدكتور محمد » : ثم خجلتُ والله من هذا الكلام المخنّث ، ومن تلفيق الذى لفقته للمرأة المخدوعة ؛ فانتفضْتُ انتفاضةَ من بِملوءِ الغضب ، وقد حمىَ دمُه ، وفى يده السيفُ الباتر ، وأمامه العدوّ الوقح ؛ وثرتُ الى البيانة فأجريتُ عليها أصابعى ، وكأنّ فى يدىّ عشرة شياطين لاعشرة أصابع ، ودوّى فى المكان لحنُ « اسلمى يامصر » وجلجلَ كالرعد فى قبة الدنيا ، تحت طِباق الغيم ، بين شرار البرق . فكأنما تزلزلَ المكان على السيدة الفرنسية وعلينا جميعاً ، وصرخَ أجدادُنا يزأرون من أعماق التاريخ : « اسلمى يامصر » . ولما قطعْتُ التفتُّ إليها فى كبرياء تلك الموسيقى وعظمتها ، وقلتُ لها : هذا هو غناؤُنا نحن الشبان المصريين

ثم راجعْنا صاحبَنا الضيف ، وأحفَيْناه بالمسألة ، فقال بعد أن دافعَنا طويلاً : إنه يحسن شيئاً من الموسيقى ، وإن له لحناً سيُطارحنا به لنأخذه عنه . فطرِبنا بلحنه قبل أن نسمعه ،

(١) البيانة : كلمة استعملناها فى كتابنا (السحاب الأحمر) للبيانو ، وتجمع على بيانات

وقلنا له : افعلْ متفضلاً مشكوراً ، وما زلنا حتى نهض متثاقلاً فجلس الى البيانة وأطرق شيئاً ، كأنه يُسوّى أوتاراً فى قلبه ، ثم دقّ يتشاجى بهذا الصوت :

أضاعَ غدى من كان فى يدهِ غدى
وحطّمنى من كان يجْهَدُ فى سَبْكِى
فان كنتُ لا آسى لنفسى فمَنْ إذن ؟
وإن كنتُ لا أبكى لنفسى فمن يَبكى(١)

قال « الدكتور محمد » : فكان الغناء يعتلج فى قلبه اعتلاجا ، وكانت نفسه تبكى فيه بكاءها وتغصّ من غصّتها ، وكأن فى الصوت فكراً حزيناً يستعلن فى همٍّ موسيقى ؛ وخيل الينا بين ذلك أن البيانة انقلبت امرأة مغنية تُطارح هذا الرجل عواطفها وأحزانها ، فاجتمع من صوتهما أكملُ صوت انسانىّ وأجملُه وأشجاه وأرقُّه .

فأطفْنا به وقلنا له : لقد كتمْتَنا نفسك حتى نمّ عليها ما سمعنا ، وما هذا بغناء ، ولكنه هموم مُلحّنةٌ تلحيناً ، فلن ندعك أو تُخبّرنا ما كان شأنك وشأنها .

فاعتلّ علينا ودافَعَنا جهدَه ، فقلنا له : هيهات ؛ والله لن نُفْلِتَكَ وقد صرتَ فى أيدينا . وإنك ما تزيدُ على أن تعظنا بهذه القصة ؛ فان أمسكتَ عنها فقد أمسكتَ عن موعظتنا ، وإن بخلتَ فما بخلتَ بقصتك بل بعلمٍ من علم الحياة نُفيدُهُ منك ؛ وأنت ترانا نعيش ها هنا فى اجتماع فاسدٍ كلّه قِصَصٌ قلبيّة ، بين نساء لا يَلْبَسْنَ إلا ما يُعرّى جمالهن ، وفى رجالٍ أفرطتْ عليهم الحرية ، حتى دخل فيها تَخدعُ الزوجة . . . . !

قال الدكتور : ونظرتُ فاذا الرجل كاسِفٌ قد تغيّر لونُه ، وتبيّنَ الانكسارُ فى وجهه ، فألمَمْتُ بما فى نفسه ، وعلمتُ أنه قد دُهِيَ فى زوجة من هؤلاء الأوربيّات اللواتى يتزوّجن على أن يكون مخدعُ المرأة منهن حرّاً أن يأخذَ ويَدَعَ ، ويُغيّر ويبدّل ، ويقسّمَ كلمةَ «زوج» قسمين وثلاثةً وأربعةً وما شاء . .

وكأنما مسستُ البارود بتلك الشرارة ، فانفجرتْ نفسُ الرجل عن قصةٍ ما أفظعَها !

قال : يا إخوانى المصريين ، قبل أن أنقُضَ لكم ذلك الخبر ، أُسديكم هذه النصيحة التى لم يَضَعها مؤلفُ تاريخىٍّ لسوء الحظّ ، إلا فى الفصل الأخير من رواية شقائى :

« إياكم إياكم أن تغترّوا بمعانى المرأة ، تحسبونها معانى الزوجة . وفرّقوا بين الزوجة بخصائصها ، وبين المرأة بمعانيها ؛ فان فى كل زوجةٍ امرأةً ، ولكن ليس فى كل امرأةٍ زوجة .

واعلموا أن المرأة فى أنوثتها وفنونها النسائية الفرديّة ، كهذا انسحاب الملوّن فى الشّفق حين يبدو ؛ له وقتٌ محدود ثم يُمسخ مسخاً ؛ ولكنّ الزوجة فى نسائيّتها الاجتماعية كالشمس ؛ قد يحجبها ذلك السحاب ، بَيْدَ أن البقاء لها وحدها ، والاعتبار لها وحدها ، ولها وحدها الوقتُ كلُّه .

لا تتزوجوا يا إخوانى المصريين بأجنبية ؛ إن أجنبيةً يتزوجُ بها مصرىّ هى مسدّس جرائم فيه ستُّ قذائف :

الأولى : بَوارُ امرأةٍ مصرية وضَياعُها بضَياع حقها فى هذا الزوج . وتلك جريمةٌ وطنية ؛ فهذه واحدة

والثانية : إقحام الأخلاق الأجنبية عن طباعنا وفضائلنا — فى هذا الاجتماع الشرقى ، وتوهينُه بها وصَدْعُه ؛ وهى جريمةٌ أخلاقية

والثالثة : دَسُّ العُروق الزائغة فى دمائنا ونَسْلِنا ، وهى جريمةٌ اجتماعية

والرابعة : التمكينُ للأجنبىّ فى بيتٍ من بيوتنا ، يملكُهُ ويحكمُه ويُصرّفه على ما شاء ؛ وهى جريمة سياسية

والخامسة : للمُسْلمِ منا إيثارُه غيرَ أختِه المسلمة ، ثم تحكيمُه الهوى فى الدين ، ما يعجبُهُ ومالا يعجبه ، ثم إلقاؤُه السمّ الدينىّ فى نَبْع ذُرّيته المقبلة ، ثم صَيْرُورَتُه خِزْياً لأجداده الفاتحين الذين كانوا يأخذونهنّ سَبَايا ، ويجعلونهن فى المنزلة الثانية أو الثالثة بعد الزوجة ؛ فأخذتْه هى رقيقاً لها ، وصار معها فى المنزلة الثانية أو الثالثة بعد . . . وهذه جريمةٌ دينية

والسادسة : بعد ذلك كلّه ، أن هذا المسكين يُؤْثِر أسفلَه على أعلاه . . . ولا يُبالى فى ذلك خمسَ جرائم فظيعة

وهذه السادسة جريمة إنسانية !

***

ما كنتُ أحسبُ يا إخوانى وقد رجعتُ بزوجتى الأوربية

(١) وضعنا هذين البيتين لبطل القصة ، وكم لهذه القصة من أبطال . . !

إلى مصر — أنى أحضرتُ معى من أوربا آلةً تصنع أحزانى وسمائبى ! ولم يكن وعظنى أحدٌ بما أعظكم به الآن ، ولا تنبهتُ بذكائى الى أن الزوجة الأجنبية تثبتُ لى غربتى فى بلادى ! وتُثبتُ علىّ أنى غير وطنىّ أو غيرُ تامّ الوطنية ، ثم تكون مني حماقةً تثبت للناس أنى أحمق فيا اخترت ؛ ثم تعودُ مُشكلةً دولية فى بيتى ، يزورها أبناءُ جنسها ويستتزرونها رغم أننى وفمى ووجهى كلّه ! ويستطيلون بالحماية ، ويستترون بالامتيازات ، ويرفعون ستاراً عن فصل ، ويُرخون ستاراً عن فصل . . . وأنا وحدى أشهد الرواية . . . !

إن الشيطان فى أوربا شيطانٌ عالم مخترع . فقد زيّن لى من تلك الزوجة ثلاثَ نساء معاً : زوجةً عقلية ، وزوجةً قلبية ، وزوجةً نفسيّة ، ثم نفثَ اللعينُ فى رُوعى أن المرأة الشرقية ليس فيها إلا واحدة ، وهى مع ذلك ليست من هؤلاء الثلاث ولا واحدة . قال الخبيث : لأنها زوجة الجسم وحده ، فلا تسمو الى العقل ، ولا تتّصل بالقلب ، ولا تمتزج بالنفس ؛ وأنها بذلك جاهلة ، غليظةُ الحسّ ، خَشِنَةُ الطبع ، لا تكون مع المصرىّ إلا كما تكون الأرضُ المصرية مع فلاّحها

لعنةُ الله على ذلك الشيطان الرجيم العالم المخترع ! ما علمت إلا من بَعدُ أن هذه الشرقيةَ الجاهلةَ الخشنةَ الجافيةَ هى كالمنجم الذى تِبْرُهُ فى ترابه ، وماسه فى فَحْمِه ، وجوهرُه فى معدنه ؛ وأن صعوبتها من صعوبة العفّة المتنعة ، وأن خشونتها من خشونة الحب المعتزّ بنفسه ، وأن جفاءها من جفاء الدين المتسامى على المادة ؛ وأنها بمجموع ذلك كان لها الصبرُ الذى لا يدخله العجز ، وكان لها الوفاءُ الذى لا تلحقه الشبهة ، وكان لها الايثارُ الذى لا يُفسده الطمع . هى جاهلةٌ ، ولها عقلُ الحياة فى دارها ؛ وغليظةُ الحس ؛ ولها أرقُّ ما فى الزوجة لزوجها وحده ؛ وخشِنَةُ الطبع ، لأنها تتنزّه أن تكون مَلمَساً ناعماً لهذا وذاك وهؤلاء وأولئك ... لا كامرأة الحب الأوربّية ، التى تجعل نفسها أنثى الفن ، وتريد أن تعيش دائماً مع زوجها الشرقىّ من التفضيل والايثار والاجلال والاباحة — فى كلمة « أنا » قبل كلمة « أنت » . . امرأةٌ أنشأتها الحربُ العظمى بأخلاق مُخَرِّبة مُدمِّرة تنفجر بين الوقت والوقت

عندنا يا إخوانى تعدُّدُ الزوجات ، يتّهموننا به من عمىً وجهل وسخافة . أنظروا ، هل هو إلا إعلانٌ لشرعيّة الرجولة والأنوثة ، ودينيّة الحياة الزوجية فى أىّ أشكالها ؛ وهل هو إلا إعلان بطولة الرجل الشرقىّ الأُنوف الغَيور أن الزوجة تتعدّد عند الرجل ولكن . . . ولكن ليس كما يقع فى أوربا من أنّ الزوج يتعدّد عند المرأة . . . !

يتهموننا بتعدّد المرأة على أن تكون زوجةً لها حقوقُها وواجباتُها ، بقوة الشرع والقانون ، نافذةً مُؤدّاة ، ثم لا يتّهمون أنفسهم بتعدّد المرأة خليلةً مخادِنةً ليس لها حقٌ على أحد ، ولا واجب من أحد ، بل هى تتقاذفُها الحياةُ من رجل الى رجل ، كالسكّير يتقاذفه الشارع من جدار الى جدار

لعنةُ الله على شيطان المدنية العالم المخترع المخنّث ، الذى يجعل للمرأة الأوربيّة بعد أن يتزوّجها الرجل الشرقى أصابع « أوتوماتيكية » ، ما أسرعَ ما تمتد فى نَزْوة من حماقاتها الى رُجلها بالمسدّس ، فاذا الرصاصُ والقتل ؛ وما أسرع ما تمتد فى نزوة من عواطفها الى عاشقها بمفتاح الدار ، فاذا الخيانة والعُهر !

ماذا تتوقّعون يا إخوانى من تلك الرقيقة الناعمة ، المتأنّثة بكل ما فيها أنوثةً تكفى رجالاً لا رجلا واحداً ، وقد ضَعُفت روحيّة الأسرة فى رأيها ، وابتُذلت الروحيّة فى مجتمعها ابتذالا ، فأصبح عندها الزواجُ للزواج على إطلاقه ، لا لتكون امرأة واحدة لرجل واحد مقصورة عليه ؛ وبذلك عاد الزواج حقّاً فى جسم المرأة دون قلبها وروحها ؛ فان كان الزوجُ مشئوماً منكوباً لم يستطع أن يكون رَجُلَ قلبها — فعليه أن يَدَعَ لها الحرية لتختار زوجَ قلبها . . . ! ومعنى ذلك أن تكون هذه المرأة مع الزوج الشرعىّ بمنزلة المرأة مع فاسق ؛ ومع الفاسق بمنزلة المرأة مع الزوج الشرعىّ . . . ! وإن كان الرجل منحوساً مُخيّباً ، وكان قد بَلَغَ الى قلبها زمناً ثم ملّه قلبُها — فعليه أن يَدعَ لها الحرية لتتنقّل وتَلَذّ بلذات الهوى ، ويقول لها : شأنك بمن أحببت ، فان هذا المنحوس المخيّب ليس عندها إنساناً ، ولكنه رواية انسانية انتهى الفصل الجميل منها بمناظره الجميلة ، وبدأ فصلٌ آخر بحوادثَ غير تلك . فلمن يشهد الرواية أن يتبرّم ما شاء ، ويستقل كما يشاء ، ومتى شاء انصرف من الباب . . . !

امرأةُ هذه المدنيّة هي امرأةُ العاطفة ؛ تتعلق باللفظ حين تُلبِسُه العاطفةُ من زينتها ، وإن ضاع فيه المعنى الكبير من معاني العقل ، وإن فاتت به النعمة الكبيرة من نعم الحياة

تقوى العاطفة فتجيء بها الى رجل ، ثم تقوى الثانية فتذهبُ بها مع رجل آخر . . . ! وتُقيِّد نفسها إن شاءت ، وتُسرِّح نفسها إن شاءت ؛ وما بُدٌّ من أن تَبلوَ الحياةَ كما يبلوها الرجل ، وأن تخوض في مشاكلها ؛ وإذا شاءت جعلت نفسها إحدى مشاكلها . . ! ولا مندوحة من أن تتولّى شأن نفسها بنفسها ، فاذا خاسَتْ أو غدرَتْ فكلُّ ذلك عندها من أحكام نفسها ، وكلُّ ذلك رأيٌ وحقٌّ ؛ إذ كان محورُها الذي تدور عليه هو عاطفتها وحريةَ هذه العاطفة ؛ فمَن هذا يُقرّر لها خطتها ، ويملي عليها واجباتها ، ويُزوِّر لها الأسماءَ على ارادته دون إرادتها ، فيسمى لها نَكَدَ قلبها باسم فضيلة المرأة ، وحرمانَ عاطفتها باسم واجب الزوجة الشريفة ؟

ومنذا خوّله الحق أن يقرّر وأن يُملي ؟

وهذا الشرقُ العتيقُ المأفونُ الذي قَبِلَها سافرة لا تعرف روحُها ولا جسمُها الحجاب ؛ ما بالُه يُريد أن يضربَ الحجاب على عاطفتها ، ويتركها محبوسةً في شرفه وحقوقه وواجباته ، وإن لم تكن محجوبة في الدار ؟

ما علمتُ يا إخواني إلا مِن بَعد ، أن الزوجة الغربية قد تكون مع زوجها الشرقي كالسائحة مع دليلها . هيهات هيهات ، إنه لن يُمسكها عليه ، ولن يُكرهها على الوفاء له ، إلا أن تكون حُثالةً يزهد فيها حتى ذُبابُ الناس ؛ فيأسها هو يجعل هذا المسكين مطمعها ، وهي مع ذلك لو خلطَته بنفسها لبقيتْ منها ناحية لا تختلط ، إذ ترى أمته دون أمتها ، وجنسه دون جنسها ؛ فما تَسُبّ أمةَ زوجها وبلاده بأقبح من هذا !

أما والله إن الرجل الشرقي حين يأتي بالأجنبية لتلوين حياته بألوان الأنثى ... لا يكون اختار أزهى الألوان إلا لتلوين مصائب حياته ! وقد يكون هناك ما يَشذّ ، ولكن هذه هي القاعدة

***

أما قصتي يا إخواني ... ...

قال الدكتور محمد : قد حكيتَها « يرحمك الله »

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

٢ – محمد بك المويلحي

للأستاذ عبد العزيز البشري

لست أغلو إذا زعمت أنني في مطلع نشأتي الأدبية كان « مصباح الشرق » عندي هو المثل الأعلى للبيان العربي . وبهذا كنت شديد الأكباب على قراءته ، وتقليب الذهن واللسان في روائع صيغه وطرائف عباراته . حتى لقد كنت أشعر أنني أترشفها ترشفاً لتدور في أعراقي وتخالط دمي ، وتطبع ملكتي على هذا اللون من البيان الجزل السهل الناقد الطريف . ولكن (ما كل ما يتمنّى المرء يدركه) !

ولقد كنت فتًى مولعاً بالصناعة ، شأن أكثر نابتة المتأدبين في ذلك العهد . فلما أرسل محمد المويلحي في المصباح (أحاديث عيسى بن هشام) زادني وزاد لِداتي به فتونا

كيف تمثل لي محمد المويلحي ؟ :

لم تكن عيني الى هذا العهد قد وقعت قط على محمد المويلحي ، ولا خيارَ للمرء في تمثُّل صورة من لم يرَ من الأناسيّ ، وما لم يشهد من البقاع . فكانت الصورة التي جلاها عليَّ الخيال لهذا الرجل ، صورة شابٍّ معتدل القدّ ، وضيء الطلعة ، وسيم الوجه قسيمه . وما كان ذلك البيان الجوهري ليجلو عليّ من الرجل غيرَ ذلك . على أنني كنت أرى أباه ابراهيم بك الحينَ بعد الحين في زياراته لوالدنا ، عليهما رحمة الله ، وفي زيارات والدنا له (بعمارة البابلي) يوم كنت أصحبه . وكان هذا المويلحي تحفة من تحف العصر التي قلّ أن يجود بمثلها الزمان : قوة لسَن ، واشتعال ذهن ، وحضور بديهة ، وسطوة نكتة ، وسعة علم بالزمان وأحوال الناس . أما سرعته وتوفيقه في إيراد الشاهد من عبر التاريخ ، ومأثور الآداب من منثور الكلام ومنظومه ، فهذا ما لم يتعلّق بغباره فيه أحد . فكان مجلسه متاعاً من أعظم المتاع

على أنني لم أوفَّق الى رؤية المويلحي الابن مرة واحدة !

وتتابعت السنون ، وخلص تحرير « المصباح » الى محمد . ثم امتحنه القدر بحادثة اعتداء يسير عليه من بعض الطُّيَّش من أبناء (الذوات) في إحدى القهوات . وانتهى الخبر الى المرحوم

الشيخ على يوسف ، وكان فى صدره موجدة شديدة على محمد وعلى أبيه لما كان بينه وبينهما من كيد وصراع ، فانتهز الفرصة ، وروى الحادثة فى صورة مهولة ، واستدرج الكتاب والشعراء للقول فيها ، وفسح لهذا فى المؤيد مكاناً عريضاً . ومن ذا الذى لم يكن موتوراً من المويلحى ؟ ومن ذا الذى لم يقدر الوتر منه فى مستقبل الأيام ؟ وإذا كان الرجل عاجزاً عن أن يخرج للمويلحى وحده ، فهذه جموع الأدباء والشعراء والعلماء أيضاً قد تداكت لقتاله بكل مافى أيديها من سلاح ! ألاَ فليتقدّم لطعن المويلحى من شاء أن يتقدّم ، فليس على أحدٍ فى قتاله اليومَ من بأس !

وتثور العاصفة ، ويشتدّ البأس ، وتحمر الحدق ، وأذّن النفير العام ، فوثب القاعد ، وتحرك الساكن ، وانبعث الجاثم ، وهبّ النائم . وأهاب القـعـدون بالمتخاف ، واستحمسوا المتخاذل . وشد الجميع على قلب رجل واحد . وهل كان من المستطاع أن يصمد لهذا الجيش اللجب رجلٌ واحد ؟ . لم يستطع المويلحى أن يثبت فى الميدان ، فأطفأ « المصباح » وانسلّ إلى داره وقد ألقى يد السلام ، واحتجب ولكن فى انتظار الثأر وريّ الغلة بالانتقام ! .

ولقد تم للمويلحى من هذا بعض ما أراد أو كل ما أراد . فلقد كان ممن أثاروا الثائرة على الشيخ على يوسف أيام حادث الزوجية المشهور ، وفتح له فى جريدة (الظاهر) باباً مثل ذلك الباب ، واستدرج له أقلام الشعراء والكتاب . وواحدة لواحدةٍ كفاء

متى رأيت المويلحى ، وكيف اتصلت به ؟ :

بين سنتى ١٩٠٧ ، ١٩٠٨ ، لا أذكر على التحديد ، سألت صديقاً حديث العهد بصداقتى ، ولكن ودّه للمويلحى قديم — سألته وتمنيت عليه أن يجمع بينى وبينه ، وما كان أبلغ دهشى واغتباطى حين قال لى : إن المويلحى قد طالعه أنه يحب أن يرانى ، ولعله عرف بى من أيام كنت أرسل القول فى الشيخ فى فتنة الزوجية شعراً ونثراً . (واسأل الله أن يغفر لى هذا) . وتواعدنا أن نذهب إليه فى الأصيل

وكان ، رحمه الله ، قد اتخذ مسكنه داراً من دور سعيد باشا نصر ، تقع فى أطراف العباسية يومئذ . وهذه الدار لا يعطى العينَ ظاهرُها أكثر من منظر (حوش) فى قرافة الأمام ، فاذا جزت مداخلها انفرجت للعين حديقةٌ واسعة قد عبّدت طرقُها تعبيداً ، ونضدت أشجارها تنضيداً ، وتأنقت يد البستانى فى تسويتها وتنميقها ، كما تأنقت يد الطبيعة فى تشجيرها وتزويقها : فهذا الفلّ الوضىء الآلق ، وهذا الورد المشرق الضاحك ، وهذا النرجس تنبعث من عيونه الأسحار ، وهذا الياسمين لقد استحال تنفساً فى ساع الأسحار .

ولقد أفرد زاوية من زوايا الحديقة للغزلان والطواويس وجماعات الطير من كل غردٍ صدّاح

ويستقبلنى ، رحمة الله عليه ، بالبشر والتأهيل والترحيب ، وإذا بى إزاء رجل حنطى اللون ، بين الطويل والقصير ، والسمين والهزيل ؛ مستطيل الوجه ، عريض الجبهة ، حادّ العينين ، مستوى الأنف ، له فم قريب الى الفوَه فى غير قبح ولا استكراه . إذا تمثل واقفاً لمحت فى ساقيه تقوساً خفيفاً لعله دخل عليه من أنه عالج المشى قبل أن تصلُب عظامه . وله إذا تحدث صوت لا أقول خشن بل أقول جَزْل . فاذا أقبل على القراءة زرّ عينه اليسرى فبان التكرش الشديد فى معقد ما بين أعلى العارض وأسفل الجبين ، وهذا التكرّش لاشك كان من أثر السنين ، وإن كان يخفيها فى المويلحىّ شدة عنايته بصحته ، وتكلفه ألواناً من علاج البدن بمأثور الوصفات ، والتزام الحمية فى كثير من الأوقات ، وأخذ النفس بالراحة التامة ما تستثيره أزمة من الأزمات ، ولا يستدرجه مجلس لهو ولا تقنصه داعيةُ لذة من اللذات ؛ وبهذا تهيأ له أن يحيا فى مثل نضرة الشباب الى الممات

وقد تلقانى فى غرفة الاستقبال ، وهى غرفة أنيقة حقاً . لقد أثثت بأفخر الأثاث وأغلاه ، وأفخر من كل شىء فيها الأناقة فى تصفيف الفراش والذوق التام . وقد زُينت أجبُنُها بصور كبيرة له ولأبيه ، وللأميرة نازلى فاضل ، وللسيد جمال الدين الأفغانى . وبلوحات خطية جميلة جرت بروائع الحكم ، وأكثرها من شعر المعرى

وخضنا فى أحاديث من أحاديث الأدب ، ولوّنا الكلام تلويناً حتى تجاوزنا نصف الليل ، وتفارقنا وكأن حبل المودة بيننا ممدود من عشرين سنة . وتواعدنا اللقاء ما تهيأ لنا . وكذلك استمكن

الألف واستوثقت حبال الود ، فما يتفارق إلا على موعد من لقاء قريب . ولقد أعيش معه اليومين والثلاثة نقرأ عامة نهارنا وصدراً من ليلنا كتباً ، أو نتذاكر أدباً

وكان ممن يختلفون الى داره مغربَ الشمس عادةً بعض أقطاب العلم وأصحاب الرأى والبيان والبدائه المواتية ، وأذكر منهم المرحومين عمه السيد عبد السلام باشا المويلحى (سر تجار مصر) ، والسيد محمد توفيق البكرى ، والشيخ على يوسف ، بعد إذ تصافت القلوب مما كان علق بها من الأضغان ، والسيد محمد البابلى ، ومحمد بك رشاد ، وحافظ بك ابراهيم ، وعبد الرحيم بك احمد ، وحافظ بك عوض ، والسيد عبد الحميد البنان . أحياهما الله أطيب الحياة . وخذ ما شئت فى أثناء هذه المجالس من أدب رائع ، ومن نادرة طريفة ، ومن حاضر نكتة قل أن تسخو بمثلها الأذهان

ولقد كنا نقضى معاً عامّة الصيف فى مدينة الاسكندرية . ولعل من أسعد هذه الأصياف ذلك الذى قضيناه معاً فى فندق فى ضاحية المكس خالصَين للرياضة ومراجعة الكتب فى مختلف الآداب ، لا ننحدر الى صلب المدينة إلا لقضاء سهرة مونقة مع آثر الصحاب . كما عشنا معاً فى شتاء سنة ١٩١١ ، ١٩١٢ بضعة أشهر فى دار استأجرناها فى حلوان

وفى سنة ١٩١٠ قُلد فى ديوان (عموم) الأوقاف منصب رئيس قسم الادارة والسكرتارية ، وفى يناير من سنة ١٩١١ عينت فى (قلم السكرتارية) . وللمويلحى فى هذا التعيين سعى غير منكور . وبهذا أصبح لى رئيساً ، كما كان لى أستاذاً وصديقاً

ولقد ظل الودّ بيننا موصولاً حتى قبض إلى رحمة الله

نشأته ودراسته :

هو السيد محمد المويلحى بن ابراهيم بك بن السيد عبد الخالق المويلحى . أصلهم من مرفأ المويلح ببلاد العرب ، هبط جدودهم مصر من زمن غير قصير ، وكانوا يتجرون فى صناعة الحرير ، وهم أهل نعمة وثراء . ولقد أتلف أبوه ابراهيم كل ما كان فى يده من الأموال فلم يتزلق عنه لبنيه إلا رِنطافٌ من الاستحقاق فى بعض الأوقاف

وما أحسب محمداً تجاوز فى الدراسة المنظّمة التعلم الابتدائى . ثم جعل يتعلم على أبيه ، ويُكِبّ على قراءة الكتب فى العلوم والآداب ، ثم اتصل بأئمة العلماء وأقطاب أصحاب الأدب من أمثال السيد جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ حسين المرصفى ، ومحمود باشا سامى البارودى ، وغيرهم من أعلام عصره فحذق العربية وبرع فيها ، وجود البيان أيما تجويد ، وهيأ له جده واضطرابه فى أسفاره بين الشرق والغرب تجويد اللغات الفرنسية ، والتركية ، والايطالية ، كما أصاب حظاً من الانجليزية واللاتينية . وكان كثير القراءة الى غاية المات ، فلا تكاد تقتحم عليه إلا رأيته يعالج بالتنسيق حديقته ، أو يقرأ فى كتاب عربىّ أو فى كتاب يجرى فى إحدى هذه اللغات

ولقد سألته ذات يوم عن أحسن الفرص التى هيأت له أعظم حظ من العلم فقــال : كنت فى الآستانة فى ضيافة رجل فاضل يدعى سليمان افندى ، وكان عنده مكتبة تعدّ من أفخر المكاتب الأهلية ، فلبست ثيابى ذات عشية تأهباً للخروج كعادتى لأسهر فى بعض ملاهى المدينة ، وتفقدت كيسى فاذا هو سفر من الدرهم والدينار ، فنضوت ثيابى ثانية وقلت باسم الله ، ولبثت عاكفاً على قراءة الكتب لا أبرح هذه المكتبة إلا للنوم أو لغيره من حاجات الحياة . وظللت على هذه الحال ستة أشهر وبعض الشهر حتى أذن الله بالفرج ، وجاءنى من المال ما هيأ لى استئناف الحياة مع الناس !

ومن يعرف صبر المويلحى ، وشدة حمله على نفسه ، لا يستطيع أن ينكر منه هذا المقال ، وسألمّ إن شاء الله بهذه الخلة العجيبة فيه عند الكلام فى عاداته وأخلاقه . وحسبى هذا الآن فقد أطلت الحديث ، وإلى الملتقى القريب ؟

عبد العزيز البشرى

صحف مطوية من التاريخ الاسلامى

٢ - العرب فى غاليس وسويسره

للأستاذ محمد عبد الله عنان

انتشرت المستعمرات والمعاقل العربية خلال القرن العاشر فى بروڤانس وساڤوا وبيمون وسويسره كما بينا ، وبسط العرب سيادتهم على ممرات جبال الألب وعلى الحدود بين غاليس وبلاد اللونبارد (شمال إيطاليا) وبينها وبين سويسره ، وبلغوا فى تقدمهم فى غاليس مدينة جرينوبل ، واحتلوا فى سويسرا ولاية ڤاليه ومفاوز چورا المتاخمة لبرجونية ، واحتلوا فى ايطاليا الشمالية ولاية ليجوريا . وكانت معاقلهم فى بروڤانس ولا سيما حصن « فركسنيه » قواعد غزواتهم وملاذ قوتهم وسيادتهم . والظاهر أنهم اتبعوا نفس هذه الخطة فى سهول بيمون فأنشأوا بها سلسلة من الحصون والقلاع القوية لتكون مركز غزواتهم فى بلاد اللونبارد وفى سويسره ؛ فان الرواية الكنسية التى كتبها حبر معاصر من دير نوڤاليس تذكر لنا اسم حصن عربى فى تلك الأنحاء وتسميه « فراشنديلوم » Fraschendellum ؛ والمظنون أنه هو المكان الذى تعرفه الجغرافية الحديثة باسم « فراسنيتو » وهو الواقع فى لومبارديا على مقربة من نهر « بو » . وتقص علينا نفس هذه الرواية الكنسية أيضاً أن سيداً نصرانياً من سادة تلك الأنحاء يدعى أيمون دفعه شغف المغامرة والكسب إلى محالفة العرب ، فانضم إليهم واشترك فى غاراتهم الناهبة ، وفى ذات يوم وقعت بين السبايا امرأة رائعة الحسن ، فاستبقاها إيمون لنفسه ، ولكن زعيماً عربياً استحسنها وانتزعها منه قسراً ؛ فغضب إيمون ، والتجأ إلى كونت روتبالدوس حاكم بروڤانس العليا ، وفاوضه سراً فى محاربة العرب وإنقاذ البلاد منهم ، فرحب الكونت بهذا المشروع ، ودعا السادة إلى معاونته ، واستطاع أن يحشد قوات كبيرة ، وهوجم العرب فى بيمون من كل صوب ومزقوا ، وسقطت قلاعهم فى يد النصارى ، وذهب سلطانهم فى تلك الأنحاء

وتقص الرواية الكنسية أيضاً قصة مؤامرة دبرها كونراد ملك برجونية لأهلاك العرب النازلين فى أملاكه ، فى چورا وعلى حدود برجونيه ، والمجر الذين كانوا يشاطرونهم يومئذ الاغارة والعيث فى تلك الأنحاء . وذلك أنه كتب إلى العرب يستحثهم لقتال منافسيهم المجر ، وانتزاع ما بيدهم من الأراضى والضياع الخصبة ؛ وكتب مثل ذلك إلى العرب يستحثهم لقتال المجر والمعاونة على إجلائهم ، وعين مكاناً للقاء العريقين ؛ فالتقت الجموع المتنافسة من العرب والمجر ونشب بينهما قتال هلك فيه كثير من الفريقين ، ثم أشرف كونراد بجموعه ومزق البقية الباقية من الفريقين قتلاً وأسراً ، وتضع الرواية تاريخ هذه الواقعة فى سنة ٩٥٢ م ؛ ولكنها لا تعين لنا مكان حدوثها (١)

ومنذ منتصف القرن العاشر يأخذ نجم أولئك العرب المستعمرين المغامرين فى الأفول ، وتضمحل سيادتهم فى تلك الأنحاء ؛ بيد أنهم لبثوا مدى حين بعد ذلك يحتلون كثيراً من مواقع ساڤوا ؛ ويجوبون أنحاء سويسرا كلها فى طلب الغنيمة والسبى . وقد اعتادوا على حرب الجبال وحذقوا أساليبها ؛ وبلغوا فى توغلهم فى سويسره مدينة سان جال على مقربة من بحيرة كونستانس ، وانشأوا ثمة كثيراً من القلاع والأبراج التى مازالت تقوم منها إلى اليوم بعض الأطلال والبقايا ، ولبثوا حيناً فى سان جال ، حتى حشد رئيس ديرها حوله جمعاً من المقاتلين الأشداء ، وفاجأوا العرب فى جوف الليل ومزقوهم قتلاً وأسراً ، وبذلك خفت وطأة الغزوات العربية فى شمال سويسرا

واستمرت المستعمرات والمعاقل العربية فى دوفينه وبروڤانس وبعض جهات الألب ؛ وكان قربها من « فركسنيه » أمنع المعاقل العربية بعدها بأسباب الجرأة والعون ، وبعدها قربها من البحر دائماً بامداد جديدة من المتطوعين والمغامرين من ثغور الأندلس وأفريقية

***

فى ذلك الحين كان أعظم أمراء النصرانية أوتو الكبير (أوتون) ملك ألمانيا ، وكان أعظم أمراء الاسلام عبد الرحمن الناصر خليفة الأندلس ؛ وكان للناصر مع معظم أمراء النصرانية ، من امبراطور بزنطية الى ملوك الشمال والغرب ، علائق سياسية منظمة ؛ وكانت له مع أوتو الكبير علائق ومراسلات . فلما رأى أمراء

(١) Bouquet, T. IX p. 6 — Reinaud, ibid, p. 128

غاليس أنهم لا يستطيعون رد العرب عن أملاكهم وأراضيهم ، سعوا الى الامبراطور أوتو زعيم النصرانية أن يعاونهم بمفاوضته الناصر زعيم الاسلام فى انقاذهم من هذا النير المزعج ؛ وكان المفهوم دائماً أن حكومة قرطبة تحمى هـذه المستعمرات العربية النائية وتمدها بعونها الأدبى على الأقل . فعول الامبراطور أوتو على السعى لدى الناصر فى تحقيق هذه الغاية ؛ وأوفد اليه فى سنة ٩٥٦ سفارة على رأسها حبر يدعى « چان » فقصد الى اسبانيا عن طريق فرنسا ، ووفد على قرطبة يحمل بعض التحف والهدايا طبقاً لرسوم العصر ، واستقبل بحفاوة بالغة وأنزل فى منزل خاص ريثما يستقبله الخليفة . وتتفق الروايات العربيـة والنصرانية فى وصف مظاهر العظمة والبهاء التى كانت تبدو بها قرطبة ، ويبدو بها البلاط الاموى يومئـذ(١) . وتقص علينا الرواية الكنسية المعاصرة تفاصيل هذه السفارة ، فتقول : إن الناصر لم يستقبل سفير أوتو فى الحال ، وإنه كان يحقد على أوتو لأنه تعرض فى بعض مراسلاته للاسلام ، ولأنه كان قد اعتقل مدى حين سفيراً نصرانياً أرسله اليه الناصر ، ولذلك أمر الناصر باعتقال السفير (چان) حتى يرسل سفيراً الى أوتو يستوثق من عواطفه ونياته نحوه ؛ واختير لهذه السفارة كالعادة قس من رعايا الخليفة ، وكان أوتو يومئذ يشتغل ببعض الحروب الداخلية ، فأبدى تساهلاً فى قبول وجهات نظر الخليفة . ولما عاد السفير ، ارتاح الناصر لنتائج سفارته ، وإذن برؤية سفير الامبراطور ؛ فاستقبل استقبالاً فخماً ظهرت فيه عظمة البلاط الأموى ؛ وتحدث الى الناصر عن الغرض من سفارته . ولا نعرف ماذا كانت نتيجة هذه السفارة ، لأن الرواية الكنسية لا تحدثنا عن ذلك ؛ ولكن المرجح أن وجهة النظر التى أبدتها حكومة قرطبة هى أنها ليست لها علاقة بالمستعمرات العربية فى غاليس ، وانها لا تحتمل تبعة أعمالها ، ولا تستطيع أن تتدخل لديها : وهو استنتاج يؤيده صمت الرواية العربية عن ذكر أخبار هذه المستعمرات ، مما يدل على أن حكومة الأندلس لم تكن تعنى كثيراً بشأنها ، وإن كانت بلا ريب تنظر الى غزواتها وتوغلها فى الأراضى النصرانيـة بعين العطف . على أن لويتبراند ، وهو مؤرخ كنسى معاصر يؤكد أن الخليفة كان يحمى هذه المستعمرات ويمدها بالتشجيع والعون(١)

وبعد ذلك بقليل (فى نحو سنة ٩٦٠) أخرج العرب من معاقلهم فى آكام سان برنار ؛ ولسنا نعرف تفاصيل ذلك الحادث ؛ ولكن المحقق أن العرب أبدوا كعادتهم منتهى البسالة فى الدفاع عن مواقعهم ؛ والظاهر أيضاً أن القديس برنار (سان برنار) الذى سميت هذه الآكام باسمه كان من أبطال الموقعة التى نشبت وانتهت بجلاء العرب

واستمر العرب فى دوفينه وبروفانس ، وكثيراً ما دعوا إلى التدخل بين سادة هذه الأنحاء . ولما غزا الأمبراطور أوتو بلاد اللونبارد ، وأخرج منها ملكها بيرانجيه ، التجأ ولده أدالبرت الى عرب « فرا كسنيه » ليعاونوه فى استعادة ملكه . وكان هذا التحالف بين السادة والعرب يقوى سيادة الغزاة ويدعمها كلما آذنت بالانهيار . بيد أن هذه السيادة قد أخذت فى الاضمحلال مذ فقد العرب معاقلهم فى بلاد الألب . وفى سنة ٩٦٥ م أخرج العرب من مدينة جرينوبل ومن واديها الخصب (جرزيڤودان) وطوردوا فى تلك النواحى وساءت أحوالهم ؛ وأعلن الامبراطور أوتو بعد ذلك بعامين أو ثلاثة ، وهو يومئذ فى ايطاليا أنه سيتولى طرد العرب من الأراضى النصرانية ، ولـكنه توفى دون القيام بمشروعه

ثم دنت بوادر المعركة الحاسمة ، وحدث فى ذلك الحين أن حبراً كبيراً ذائع الصيت هو سان مايل ، وهو أسقف دير كلونى من أعمال برجونيه ، حج الى رومه ، ولما عاد من طريق دوفينه أسره العرب المرابطون فى الجبال مع جماعة كبيرة من الحاج ، واشترطوا عليهم فدى فادحة ؛ فدفعت بعد عناء ، وأطلق سراح سان مايل وزملاؤه . ولما عاد سان مايل الى مقامه دعا مواطنيه الى إنقاذ البلاد من عيث الغزاة ، وأذكى حماستهم وسخطهم ، وذاعت قصة أسره وما يعانيه الحاج من شر العرب وعدوانهم ، فنهض سيد من سادة تلك الأنحاء يدعى بوبون (أو بيڤون) ، وانتهز فرصة الحماسة العامة ، وجمع حوله كثيراً من المقاتلة ، وبنى

(١) راجع فى وصف هـذه المظاهر التى شهدها سفراء النصرانية — نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ١٧٠ — ١٧٢ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ و١٤٣ — وراجع Reinaud; ibid, p. 188 — 189

(١) Reinaud; ibid; p. 193

حصناً فى سسترون على مقربة من حصن كان يملكه العرب ، ولبث يتحين الفرص لمفاجأة العرب والاستيلاء على حصنهم ، حتى استطاع ذات يوم أن يحمل بعض الحراس على فتح الأبواب ، فتمت الخيانة ، وباغت النصارى العرب فى حصنهم ، وقضوا عليهم قتلاً وأسراً (سنة ٩٧٢ م)

وفى الوقت نفسه التف النصارى فى دوفينه حول زعيم يدعى جيوم ، وهاجموا العرب فى جميع مراكزهم وقلاعهم ومزقوهم فى كل ناحية ، وبذا انهارت سيادتهم فى دوفينه ولم تبق إلا فى بروفانس . ولما قوى جيوم وكثر جمعه ، بسط نفوذه على بروفانس وتلقب بألقاب الأمارة ، واعتزم أن يخرج العرب نهائياً من تلك الأرض ؛ فدعا السادة لمعاونته ومنهم كونت نيس ، ورأى العرب أن العاصفة تنذر باجتياحهم من كل ناحية ، فاستجمعوا كل أهبتهم وقواهم ، ونزلوا من الآكام الى البسيط فى صفوف متراصة ووقعت بينهم وبين النصارى معركة هائلة فى «تورتور» ؛ فهزم العرب ، وارتدوا الى قلاعهم ، ولا سيما « فركسنيه » التى غدت ملاذهم الأخير ؛ فطاردهم النصارى أشد مطاردة ، وضيقوا الحصار عليهم ؛ فحاولوا الفرار تحت جنح الليل إلى الغابات المجاورة ، ولكن النصارى لحقوا بهم ، وأمعنوا فيهم قتلاً وأسراً وأبقى على من استسلم منهم ، وعلى المسالمين الذين كانوا يحترفون الزرع فى الضياع المجاورة ، وفر كثيرون من طريق البحر ، وتنصر كثير منهم ، وبقى نسلهم فى تلك الأرض طويلاً

وهكذا سقط حصن « فرا كسنتم » أو فرا كسنيه سنة ٩٧٥ م بعد أن لبث زهاء ثمانين سنة مركزاً قوياً للغزوات العربية فى غاليس ؛ وقسمت أسلاب العرب وأراضيهم بين السادة والجند الذين اشتركوا فى هذه الحرب الصليبية ، وانهارت سلطة العرب فى تلك الأنحاء

أما المستعمرات العربية التى كانت مبعثرة فى آكام الألب ، فيقال إنها طوردت ومزقت فى نفس الوقت ، واعتنق الذين أسروا النصرانية ؛ ولكن توجد رواية أخرى خلاصتها أن هذه المستعمرات لبثت فى معاقلها نحو جيل آخر ، حتى تولى مطاردتها وسحقها زعيم يدعى جيرولدوس . وعلى أى حال فلم تأت أواخر القرن العاشر حتى ذهبت سيادة العرب فى غاليس وسويسره ؛ ولم يجب أحد فى أفريقية والأندلس صريخ الغوث الذى وجهه أولئك المستعمرون البواسل الى اخوانهم ، لأن الحوادث الداخلية لم تكن تسمح يومئذ ببذل هذا العون

على أن ذلك لم يكن خاتمة الغزوات الاسلامية فى تلك المياه ؛ ففى سنة ١٠٠٣م ، سارت حملة بحرية من مسلمى الأندلس ، ونزلت بجوار أنتيب فى جنوب فرنسا ، واجتاحت الأراضى المجاورة . وفى سنة ١٠١٩م ، نزلت حملة مسلمة أخرى فى ظاهر أربونة ، وحاولت أن تستولى عليها ، ولكنها هزمت ومزقت . وفى سنة ١٠٤٧ ، هاجمت حملة أخرى جزيرة ليران الواقعة بالقرب من مرسيليا وأسرت عدداً من الرهبان . وظهر فى ذلك الحين زعيم أندلسى جرىء هو مجاهد العامرى أحد أمراء الطوائف ، وصاحب دانية وجزائر البليار ، واهتم بأمر الغزوات البحرية ، فسار فى أسطوله إلى مياه كورسيكا وسردانية ؛ وغزا سردانية واحتل بعض أنحائها ، (سنة ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م) ، ولكن النصارى استردوها على الأثر [1] ؛ ولبث مجاهد العامرى الذى تسميه الرواية النصرانية « موجيه » أو موسكتوس ، مدى حين سيد هذه المياه يبث فيها بحملاته الرعب والروع

***

هذه هى قصة العرب والغزوات العربية فى غاليس وبلاد اللونبارد وسويسره ، وهى قصة تغفل الرواية الاسلامية كثيراً من أدوارها ووقائعها ؛ ولكنها تشغل فراغاً كبيراً فى الروايات الكنسية والفرنجية المعاصرة ، وهذه الروايات هى عمدتنا فيما ننقل من سير هذه الغزوات الشهيرة . ومن المحقق أنها مشبعة بروح التحامل والخصومة فى كثير من المواطن ؛ ولكنا نستطيع مع ذلك أن نتبين منها أهمية الدور الذى قام به أولئك المجاهدون والمغامرون المسلمون فى تلك الوهاد والآكام النائية ، وما كان لهم بين هاتيك الأمم من السيادة والنفوذ مدى عصور

« للبحث بقية »

محمد عبد الله عنان
المحامى

---

(١) ابن خلدون — المقدمة — ص ٢١٢

بين فن التاريخ وفن الحرب

٩ ـ خالد بن الوليد *

فى حروب الردة

للفريق طه باشا الهاشمى

رئيس أركان الجيش العراقى

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

ولا يخلو من الفائدة أن نقتبس هنا وصف المستر فلبي الذى تجول فى هذه المنطقة فى صيف سنة ١٩١٨ ، فدون مشاهداته فى كتابه « البلاد العربية الوهابية » (Arabia of Wahhabit) وقد وصف قرية الجبيلة الواقعة بالقرب من قرية (عقرباء) التى دارت رحى المعركة فيها بما يلى :

« والقرية الآن آهلة بعدد يسير من السكان البؤساء ، ومعظمها أطلال دارسة ، ومقابر الصحابة على ضفة الترعة المقابلة للقرية (أى الضفة اليسرى للوادى) وعلى مسافة نحو ربع الميل منها . وقد يشاهد المسافر بقاعاً متفرقة مغروسة بأشجار الأثل (الطرفاء) تسرى عن المرء الانقباض الذى يعتريه من إدامة النظر الى اللون الأغبر الذى لا يتغير ، وهو اللون الدائم لتلك السهول الرسوبية المترامية التى سدت الوادى . وبقرب الحى آبار كثيرة بعضها مطوى بالحجارة يستقى منه أهل الحى دائماً . أما بيوت أهل الحى فمعظمها أطلال من اللبن بلا خشب ، وقد عبثت بها يد البلى ودرست آثارها الأيام . أما ما بقى منها فلا بأس بحاله ، ويستدل منه على أن أهل تلك البيوت عنوا بصيانتها فدعموها بأعمدة حجرية مشيدة بالجص لتحمل على متونها روافد السقوف . وقد شاهدت فى دار منها وعاء مزدوجاً كبيراً من الملاط المغطى بطبقة رقيقة من الصاروج (الجص) الأسمر لخزن التمور ، ولا تزال جدرانه ملونة بعصارة التمر » إلى أن يقول : « ومعظم الجدران المبنية من الطين مؤزر الى ما يقارب نصفه بأيادات من الحجر الصلد مبنية على وجه الجدار بناء منحرفاً توخوا فيها بساطة التزويق لا غير » . . . ويقول فى وصف جبل طويق والهضاب التى يشرف عليها : « أماما استدار من الأرض حول تلك المنطقة فلم أجد فى حياتى أرضاً مثله ، فلم أعثر فى ارباضه على شىء تنقبض له النفس ، فتجد أمامك طويقاً معرضاً لمهاب الرياح ، خالياً من الظاهرات الطبيعية ، ضارباً فى كافة الجهات على نمط واحد لا نهاية له ، ولا يعترضه فى ذلك التكوين الغريب سوى الحرف المطمئن المسمى جبل صلبوخ الواقع الى الشمال الشرقى »

وعندما يبحث فى أطراف عينة عاصمة آل ابن معمر القدماء وهى القرية الواقعة الى غربى عقرباء ، فى واد ضيق — يقول : « أما ربوع عينة التى اشتهرت فى قديم الزمن بجمالها وخصبها فمنبسطة على جانبى المسيل شرقاً وغرباً نحو ميلين ، وقد أمست الآن قاعاً صفصفاً وأثراً بعد عين ، ونبتت أدغال الأثل فى البقاع التى وطئت أراضيها ومهد ثراها لغرس فسائل النخيل فيها . أما البلد الأصلى أو المحلة التى كانت يوماً موطناً لآل ابن معمر فلا تختلف عما كان حولها من الربوع الضاربة فى صدر تلك المحلة الرحبة ، إلا أن أطلالها الشاخصة قد شغلت بقعة وسيعة ، وتمرعابر السبيل فى تلك البيداء بين آونة وأخرى بأطلال البنيان القديم كالعمد المزوقة رؤوسها . وفى كل ناحية من نواحى تلك المحلة الوسيعة آبار نضب عنها الماء وهى مطوية بالحجارة والآجر وعليها أحواض مبنية بالصاروج ، أما ضفاف المسيل فمدعمة بأيادات كالمسنيات على أشد ما تكون من متانة البنيان ، عقدها أصحابها فى وجه السيل من زمن بعيد لحبس المياه فى بطن المسيل . فرحلوا عنها وتركوها وشأنها فعبثت بها يد الدهر فتداعت جدرانها وتقوض بنيانها المحكم ثم غدت تراباً فوق أنقاض بالية . وشاهدت فى بعض تلك الجدران حجارة كبيرة من الصخر الصلد طول الحجر الواحد قدمان فى عرض نصف قدم » الى أن يقول . « جزنا الأطلال وخرجنا من عينة الخربة وسلكنا طريقاً تخترق أشجار الأثل فى عنفوان نموها ، والمنتشرة فى طول الأرض وعرضها الى أن تنتهى فى طرف المحلة القائمة فى الناحية الغربية فولينا وجوهنا شطر المغرب صاعدين الوادى . فسار بنا الظعن يطوى صوحه صعوداً . وعرض الوادى فى أسفله (أى فى عقيقه) نحو الميل ،

(*) وهو بحث فنى قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل « الرسالة »

وكلما ارتقى الانسان صوح الوادى وارتفع عن عقيقه ازداد انفراج الوادى الى أن بلغ عرضه ميلين أو ثلاثة اميال . ولما أرسلت رائد الطرف فى ميمنة الوادى بدا لى شعيب فى منخفض الوادى ، وقد قيل لى إن هذا الوادى يأخذ فى الصعود مرة أخرى الى حوض عظيم كسيت جدرانه بالصاروج ، يقع على سفح التل لحبس مياه الأمطار والشاعب المنحدرة على جوانبه ، ولم يزل حتى الآن خزاناً لرى حقول القمح المزروعة فى وسط الخرائب . وهناك شعيب آخر الى يمين طريقنا يقال له شعيب عينة ينحدر من الهضبة الضيقة التى تفصل وادى حنيفة عن وادى سدوس »

قوات الفريقين

برغم كثرة الروايات التى تتناول حركات اليمامة والقتال فى عقرباء نجد الغموض ظاهراً فى معرفة قوة الفريقين.

فالطبرى يذكر نقلاً عن سيف بن عمر أن القوة المحاربة لدى قبائل بنى حنيفة بلغت أربعين ألفاً . ولما ذكر أخبار السنة الحادية عشرة الهجرية نقل عن ذلك الراوى نفسه ، وزعم أن القوة المحاربة بلغت عشرة آلاف . أما ابن حبيش فيذكر فى رواية نقلها عن الواقدى مفادها أن قوة المسلمين بلغت أربعة آلاف ، وقوة بنى حنيفة أيضاً بلغت هذا المقدار ذاته . وفى رواية تسند الى سيف بن عمر يزعم الراوى أن عدد القتلى من بنى حنيفة بلغ عشرين ألفاً

أما المؤرخ الفارسى ميرخوندى فيزعم أن عدد القتلى فى تلك الموقعة بلغ سبعين الفاً ، والذين قتلوا فى حديقة الموت بعد المعركة بلغ عددهم سبعين ألفاً . ولعلك أدركت أنه يصعب الوصول الى عدد يقرب من الحقيقة بين هذه الروايات التى تقدر قوة الحنفيين بين أربعة آلاف وأربعين ألفاً ، وعدد القتلى منهم بين عشرين ألفاً الى مائة وأربعين ألفاً

ولكن الثابت أن مسيلمة جمع أعظم قوة لمقابلة جيش المسلمين ووضعها على الحد الفاصل بين بلاد حنيفة وبلاد بنى تميم وترك القرى العامرة وراءه . وكان من مصلحة الحنفيين أن يجتمعوا تحت لواء رئيسهم للدفاع عن حيهم الذى تركوه وراء ظهورهم ، ويظهر من مجرى المعركة أن عدد القتلى فى قوة الحنفيين كان كبيراً

لقد قدرنا جيش بنى حنيفة عند البحث فى قوات الفريقين بخمسة عشر ألف مقاتل — بمعنى أن الحد الأقصى للقوة التى يستطيع الحنفيون سوقها لا يجاوز العدد المذكور . والذى يلوح لنا أن القوة التى جمعها مسيلمة فى عقرباء تبلغ عشرة آلاف مقاتل

قوة المسلمين

يروى الواقدى أن جيش خالد بلغ أربعة آلاف مقاتل فى معركة عقرباء . وفى رواية أخرى تسند إلى عيسى بن سهل أن الجيش الذى تولى قيادته خالد لما خرج من المدينة كان بقوة أربعة آلاف مقاتل ، وهذا الجيش حارب فى اليمامة . والذى لاريب فيه أن قوة جيش المسلمين بلغت أربعة آلاف مقاتل لما تركت الربذة وتقدمت نحو بزاخة وانضمت إليه قوات من بني طيء قبل المعركة . ثم زاد هذا الجيش بعد إسلام قبائل بنى أسد وغطفان . ولعل قوته بلغت أكثر من خمسة آلاف لما نزل فى البطاح . ومن الثابت أن جماعات من بنى تميم انضمت إليه قبل أن يتوجه نحو اليمامة . وتروى لنا الأخبار أن الخليفة أبا بكر أمد الجيش بقوات من المدينة لما كان محتشداً فى البطاح ، وأن خالداً سبق هذا الامداد من المدينة وانتظر وروده من البطاح . فجميع هذه الأخبار تدل على أن جيش المسلمين تضاعفت قوته بانضمام القبائل ووصول النجدة إليه قبل أن يتحرك من البطاح نحو اليمامة

وكان من البديهى أن تلتحق به القبائل متى اتصل بها خبر خيرات اليمامة ووفرة المغنم فيها .

ويلوح لى أن قوة الجيش بلغت أكثر من ستة آلاف قبل حركته من البطاح

الموقف قبل الحركة

لبى خالد أمر الخليفة فذهب إلى المدينة ليدافع عن عمله فى قضية مالك بن نويرة ، وفى رواية لسيف بن عمر أن أبابكر أرسل عكرمة بن أبى جهل إلى اليمامة لما كان خالد يحارب المرتدين فى بزاخة وأمده بقوة أخرى بقيادة شرحبيل بن حسنة . والرواية تزعم أن عكرمة بدأ القتال قبل وصول شرحبيل فنكب . فأقام شرحبيل فى الطريق حيث أدركه الخبر . وهذه الرواية تؤيد زعم سيف فى أن الخليفة قسم جيش المسلمين فى ذى القصة إلى إحدى عشرة فرقة ، وعين قائداً لكل منها فوجهها إلى مناطق المرتدين .

وقد سبق أن بينا فساد هذا الزعم . وفى رواية أخرى أن شرحبيل

ابن حسنة الذى تلقى أمراً من الخليفة بأن ينتظر ورود خالد ولا يتحرك بادر إلى قتال مسيلمة قبل قدوم خالد فنكب وانسحب .

وإذا صحت هذه الروايات يلوح لنا أن عكرمة بن أبى جهل كان يراقب اليمامة بقوة ساترة من المسلمين لما وقف خالد فى البطاح ، فوقعت مناوشات بينه وبين الحنفيين حبطت مساعيه فيها فانسحب . أما شرحبيل بن حسنة فانه تولى قيادة جيش المسلمين عند ذهاب خالد إلى المدينة . فبدلاً من أن ينتظر ورود خالد أسرع إلى مقاتلة الحنفيين فانكسر

ولما قدم خالد البطاح كان جيش المسلمين مرابطاً فيها ، وكانت قبائل بنى تميم عرضت الولاء إلا البعض منها فالتجأ إلى اليمامة . وكان بنو طىء وبنو أسد وبنو غطفان وبعض بنى تميم أمدوا جيش المسلمين بالمقاتلين

أما مسيلمة فانه جهز عدداً كبيراً من بنى حنيفة وتقدم شمالاً يريد مقابلة جيش خالد . وتدل الأخبار على أن بعض الحنفيين كان يخابر المسلمين سراً ويطلع خالداً على موقف مسيلمة . ومن الروايات ما يؤيد أن الحنفيين الذين حافظوا على إسلامهم تحفزوا للشغب على مسيلمة

الطريق الذى سلكه خالد

هناك طريقان للتقدم من البطاح نحو اليمامة : طريق شرقى وطريق غربى . أما الطريق الشرقى فيتجه شرقاً أولاً ثم يمتد إلى سفح جبل طويق الغربى متوجهاً إلى الجنوب الشرقى ماراً بالأرض الجبلية ، وهو الطريق الذى يصل بريدة بالزلفى ثم يمتد إلى المجمعة ومنها إلى الحوطة فثادق فسدوس ؛ أما الطريق الغربى فيتوجه نحو الجنوب الشرقى فيمر بين نفود السر ونفود الشقيقة إلى أن يصل الى الشقرة عاصمة الوشم ومنها يمتد موازياً لسفوح جبل طويق الغربية فينعطف نحو الشرق ويتسلق الجبال ويمر بثنية اليمامة بحيث ينبع وادى حنيفة فى غربى عينة فينتهى فى عقرباء ويدخل اليمامة .

والذى يلوح لنا أن خالداً سلك الطريق الغربى لاجتيازه أرضاً سهلة تجعل المدينة فى ظهره . أما الطريق الشرقى فيخترق أرضاً جبلية وعرة . وقد تعرقل عليه السير إذا أراد أهلها المقاومة فضلاً عن أنه طويل

ومن الأخبار ما ينبئ بأن طليعة جيش المسلمين باغتت بعض رجال مسيلمة فى ثنية اليمامة — أى فى عقبة الحيسية وهو المضيق الواقع إلى شرق الحيسيان بين خشم الحيسية وخشم الخرشة وفيه تنقسم مياه الأمطار ، فمنها ما يصب إلى الشرق ويجرى فى وادى حنيفة ومنها ما يصب إلى الغرب ويجرى فى بطن الحور

ومن جملة الأسباب التى تجعل خالداً يميل إلى سلوك الطريق الغربى قربه من قاعدة الحركات أى المدينة . فاذا مانكب الجيش يصل إليه المدد من خلفه ، وإذا ما تضايق يستطيع الانسحاب إلى المدينة أو إلى مكة من بلاد أسد وغطفان ، أو من بلاد بنى عامر وهوازن . لذلك نجزم بأن جيش المسلمين سلك ذلك الطريق فى مسيره نحو اليمامة

معركة عقرباء

يقيناً أن معركة عقرباء من المعارك الفاصلة التى ختمت دوراً وفتحت دوراً آخر . فالمسلمون جمعوا أقصى قوتهم بقيادة أمهر قوادهم . والمرتدون حشدوا أعظم قوة فى استطاعتهم جمعها فى أوعر منطقة . فمجرى المعركة يدل على الغاية التى كان يستهدفها كل من الفريقين

فلو انكسر المسلمون ، لا سمح الله ، فى هذه المعركة ، لبقى العرب منزوين فى جزيرتهم ، واحتفظ الأكاسرة بملكهم فى العراق ، ولم يبك هرقل ضياع سورية . فالنبى الكاذب أسود المنسى الذى سيطر على اليمن مدة من الزمن قتل غيلة ، فلم يضطر المسلمون الى حشد قوة كبيرة للتغلب عليه . أما بنو أسد فلم يكن من الصعب التغلب عليهم لتفرق كلمة القبائل . بيد أن فى عقرباء احتشدت أعظم قوة من أمنع قبيلة فى أرض مستحكمة ، وكان الناس يقاتلون عن حبهم ، ويتفانون فى سبيل نبيهم

ولما انتهت المعركة بانتصار المسلمين انكسرت مقاومة المرتدين فى الأقطار الأخرى ، ولم يلاق المسلمون صعوبات فى تمكين الاسلام من قلوب أهلها ، فخضعت البحرين ، ودانت عمان ومهرة بدين الاسلام ، وجددت حضرموت إسلامها ، وعادت اليمن الى حظيرة الاسلام . وكان من أثر ذلك أن اجتمعت كلمة العرب فشعروا بقوتهم فبادروا الى الفتوح بقيادة رؤسائهم ، فاندفعوا كالسيل الجارف يثلون العروش ويقضون على امبراطورية الأكاسرة ودولة القياصرة ، فلم يمر بضع سنوات على ذلك حتى كان العرب يصولون بخيولهم فى بلاد خراسان شرقاً وبلاد المغرب غرباً

يتبع   طه الهاشمى

في الأدب الدرامي

١٥ – الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

تتمة

الغنائية (الأوبرا L'opéra)

الغنائية :

الغنائية هي درامة شعرية جدية أو هزلية تؤلف من الغناء والانشاد وتأبى الحوار الكلامي ، وتقبل الخوارق كالأشباح والأرواح والهواتف ، وتوقع على أنغام الموسيقى ، وتختلط أحياناً بالرقص ، وتعنى كل العناية بالزينة والرياش . وهي غاية ما وصل اليه الجمال الفني والذوق الانساني ، لأنها مجمع الفنون الجميلة ومظهر الآداب الجليلة ومتعة النفوس ولذة الحواس بما تفيضه على العيون والآذان والأذهان من جميل الصور وحلو النغم ورائع الشعر ، بَلْهَ ما تقتضيه من كمال الفن الآلي (mécaniqu) لأحداث الخوارق وتغيير المناظر . فهي ولا ريب أفصح الألسنة إبانة عما بلغته القرائح من النبوغ وأدركته الفنون من النضوج في عصرها الذي مثلت فيه

على أن قوام الغنائية وفروعها هو الموسيقى والمناظر ، فهي تنزل الكلام والحادث والتعقيد في المحل الثاني منها . لذلك لا تجد كلامنا عنها إلا إجمالاً يكاد يقفك عند التعريف والتقسيم . وقبل أن نأخذ في تقسيم الغنائية يحسن بي أن أنقل اليك ما قاله في هذا الصدد الفيلسوف ابن رشد في تلخيصه كتاب الشعر لارسطاطاليس . وما قاله لا يدخل في موضوعنا إلا من الباب التاريخي . وهذا الملخص قد طبعه الأستاذ المستشرق (لاريجو) بمدينة فلورنسا سنة ١٨٧٣ قال : (المحاكاة في الأقاويل الشعرية تكون من قِبَل ثلاثة أشياء : من قبل النغم المتفق ، ومن قبل الوزن ، ومن قبل التشبيه نفسه . وهذه قد يوجد كل واحد منها منفرداً عن صاحبه مثل وجود النغم في المزامير ، والوزن في الرقص ، والمحاكاة في اللفظ ، أعني الأقاويل المخيلة الغير موزونة . وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها مثل ما يوجد عندنا في النوع الذي يسمى الموشحات والأزجال ، وهي الأشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة أي الأندلس)

ولا مرية في أن أعاريض الموشحات والأزجال أنسب لنظم الغنائيات من سائر بحور الشعر لحلاوة نغمتها وسهولة توقيعها وتنوع قوافيها

فالغنائية تنقسم باعتبار تلحينها الى أجزاء نسردها لك دون أن نعرض لها ، لأنها ليست من شأننا ولا مما يدخل في علمنا . وهي الافتتاح ، والمقدمة ، والانشاد ، والألحان ، والثاني ، والثالث ، والرابع ، والخامس ، والخورس ، والختام في نهاية كل فصل . فالافتتاح ما يسبق رفع الستار ، والمقدمة ما يهيء للعمل ، والانشاد نوع من الغناء يحل محل الحوار الكلامي دون أن يتقيد بوزن ، والثاني والثالث والرابع والخامس قطع يزدوج فيها الصوت أو يثلث أو يربع أو يخمس ، والخورس ما فوق ذلك . على أن اجتماع هذه الأجزاء ليس ضرورياً ولا جوهرياً . فالملحن يستطيع أن يغفل منها ما لا يتفق مع الرواية

ثم تنقسم الغنائية باعتبار تأليفها الى غنائية جدية ، وهي ما كان موضوعها سامياً وعملها رائعاً وأداؤها غنائياً كله . فلا تجيز الحوار النثري وإنما تستبدل به الانشاد ، وغنائية هزلية وهي ما تجيز الحوار النثري في خلال القطع الغنائية

الغنائية الجدية (L'opéra seriese)

ليس من اليسير أن تجد لهذه الغنائية تعريفاً جامعاً لتنوعها وتفرعها ، واختلاف الرأي فيها بين الفرنسيين والايطاليين ؛ فان لكلا الشعبين نظرية فيها سار عليها ودعا إليها . ولعلنا إذا ذكرنا النظريتين تستطيع أن تقف منهما على موضوع الغنائية ومداها

فالنظرية الفرنسية زعيمها (كينو) وهي منبنية على تقليد الملحمة في استعمال الخوارق والأعاجيب وتنوع المناظر وتعدد الصور ، ونقل كل ذلك إلى عين الناظر كما تنقله الملحمة إلى ذهن القارئ . فقد يكون التأليف كله مختلقاً غريباً ، ولكن في هذا الاختلاق اتفاقاً واتساقاً تنتج منهما الحقيقة ، كما أن الموسيقى تظهر جمال الخوارق ، والخوارق تبين إمكان الموسيقى . فأنت في جو جديد يجمع بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، ويضيف إلى جمال الخيال سحر

الطبيعة ، وذلك كله يسير فى انسجام والتئام ودقة . أما العمل الروائى فواضح يسهل عقده وحله ، والحوادث يتوالد بعضها من بعض ، والأهواء رقيقة تشتد حيناً ثم ترق ، والأخلاق ساذجة ، والمناظر متنوعة ، والجاذبية قوية مؤثرة ، ولكنها تتراخى أحياناً فتخفف عن الأعصاب وترفه عن النفوس

تلك هى غنائية (كينو) ونظريته : يجمع كل ما يستطيع من الوسائل ليخلب السمع ويبهر البصر ؛ وهو لذلك يستمد موضوعاته من الأساطير والسحر ، فيملأ المسرح بالأعاجيب والصور ، ويهيئ لنفسه الانتقال من الأرض إلى السماء ومن الجنة إلى النار مهيمناً على الطبيعة مستولياً على الوهم فاتحاً للمأساة طريق الملحمة ، ليجمع بين فضائل النوعين ، ويوفق بين مرمى القصيدتين

ومزية هذه الطريقة الخرافيـــة أن تكفى الشاعر مؤونة التفضيلات الدقيقة التى تطلبها الحقيقة ، فان الموضوعات التاريخية تقتضى جلاء الغامض وتعليل الحوادث وتقريب البعيد وإمكان المستحيل

أما النظرية الايطالية فزعيمها (ميتا ستاز) وهى مبنية على محاكاة الطبيعة وتوخى التأثير والبلوغ بالمحزنات الفواجع إلى حد لم تبلغه المأساة . فهو يكسو الأفق بالسواد ، ويصبغ المسرح بالدم ، ويسرع بحركة العمل وهو مغرق فى الاشارة والاثارة بروعة الأداء وحدة الهوى . وفضل هذه النظرية على الأولى ظاهر فى قوة الأثر ودقة المواقف وجمال الحقيقة وسهولة الامكانية . لذلك عني الشعراء والموسيقيون بالتوفيق بين النظريتين والجمع بين الطريقتين ليدركوا مزايا هذه وتلك . فهم يمزجون الصور العجيبة بالرهيبة ، والمواقف الطريفة بالعنيفة ، والمناظر التى تسحر العين بالتى تخلب اللب

على أن الغنائية ليست مقصورة على الخوارق والمحزنات ، وإنما تتناول الاناقة الحضرية والحياة الريفية والخلق الفكه والهزل المضحك ، على شرط أن يتسق كل ذلك فى طبيعة حية وحركة قوية وتنوع جاذب

الغنائية الهزلية (L'opéra comique)

أما الغنائية الهزلية فاسم يطلق اليوم على درامة جدية الموضوع فكهة الأسلوب ، تخلط الغناء الشعرى بالحوار النثرى ، وتعنى بتعقيد العمل الروائى . ومنشأ هذا النوع كان فى مستهل القرن السابع عشر ، ظهر أولاً فى شكل ملهاة غنائية كانت تمثل فى سوقين شهيرتين : (سان جرمان) و (سان لوران) . ثم أخذ مع الزمن يقترب من الغنائية الجدية بتغليب جانب الموسيقى والغناء حتى لم يبق بينهما اليوم إلا فروق سطحية شكلية أهمها الأسلوب الفكاهى . فاطلاق هذا الاسم على الغنائية التى لانصيب للهزل فيها اطلاق غير صحيح ، لأن الغنائية إنما وضعت فى الأصل للدلالة على كل عمل موسيقى ، ولا سيما العظيم الجدى منه . فاضافتهم صفة الهزل (Comique) اليها دليل على أنهم يريدون بها عملاً أقل فى العظمة ، وأقرب من الهزل ، وأقبل للحوار النثرى . ويؤيد هذا الرأى أن الغنائية الهزلية أو الابرا كوميك سليلة المهزلة (الفودفيل)(1) ولا يفرق بينهما إلا أن ألحان المهزلة كلها معروفة مألوفة من قبل ثم تقتبس لأوزان جديدة تؤلف للرواية . أما ألحان الغنائيـــة الهزلية فهى مصنوعة لأوزانها خاصة ، ولذلك كان شعرها محكم الرصف بديع الوصف ، يقوم عليه الشطر الأكبر فى نجاح الرواية

وغبرت الغنائية الهزلية حقبة من الدهر وهى خاضعة لسلطان المهزلة فلا تستطيع أن تتجاوز مداها ، ولا أن ترتفع عن مستواها ، وانما كانت تستعير أساليبها الحية ، وأناشيدها الطلية ، حتى جرؤ الملحنون على أن يطلبوا الى المؤلفين أن يوسعوا الدائرة القديمة ، وأقدموا هم أيضاً على ابتكار ألحان جديدة ، واقتباس بعض المثانى والمثالث والأشكال من الغنائية الجـدية ما دامت تتصل بها وتتعلق بسببها . فلما صارت الغنائية الهزلية فناً أدبياً

(١) تطلق هذه الكلمة اليوم على ملهاة صغيرة تافهة الموضوع محكمة التعقيد ، هزلية الأسلوب ، لاتتحرج من ارسال النكتة المقذعة . وقد تشتمل على بعض الأصوات الغنائية استبقاء لأثر الماضى وخصائص الأصل . فقد قالوا فى بدء تكوينها إن (أوليفيه باسلين) من أهل (فير) وهو واد فى (نرمانديا) نظم سنة ١٤٥٠ أغانى هجائية ذاعت فى وادى فير فسميت بذلك فود فير (Vau de vire) أى (وادى فير) ثم نزحت عن منبتها ومكان نشأتها فتصحف الاسم الى (فودفيل) . وفى مستهل القرن الثامن عشر أدخلوا هذا النوع من الأغانى المقذعة فى ملاه كانت تمثل فى الأسواق وتسمى (ملاهى مع الفودفيل) ثم اقتصروا بعد ذلك فى اسمها على الفودفيل ، وكانت حينئذ كلها شعراً يغنى على أنغام معروفة من قبل لم تصنع لها خاصة حتى دخلها الحوار النثرى فصارت أشبه بالغنائية الهزلية لايميزها منها إلا الفرق الذى مر بك عند الكلام عن هذه الغنائية . ثم فعل بها الزمن ما فعل بسائر الأنواع فشذب أطرافها ، وهذب إسفافها ، حتى ردها الى التعريف الذى بدأنا به هذه الكلمة

وعملاً روائياً حقيقياً أصبح الكاتب يضع روايته حراً من كل قيد ، ثم يدفعها الى الملحن فيختار لها فكرة موسيقية تقوى التعبير عن الغرض . وهم اليوم يميلون الى تقليل الحوار وتكثير الغناء ، ورد هذا النوع الى شكل لا يكون معه إلا درامة غنائية وملهاة غنائية لايدخل فيها ماليس منها حتى لايقول فيه القائلون اليوم إنه نوع مزيف ، وحتى لايصفه (تيوفيل جوتييه) « بأنه سفيح قبيح ، قد خلط بين وسيلتين متباينتين من وسائل التعبير ، فجعل الممثلين يسيئون الغناء بحجة أنهم ممثلون ، والمغنين يسيئون التمثيل بحجة أنهم مغنون » .

على أنه بالرغم من هذا النقد الوجيه يستحق العناية والتأييد ، لأنه سبب واصل بين ذوق العامة وذوق الخاصة ، ودرج صاعد بالجمهور الى الفن الموسيقى فيرفعه من حضيض (الڤودڤيل) الى أوج (الأبرا) .

وهنا نقف القلم معتقدين أن فيما بسطناه من قواعد الفن الدرامى بلاغاً للكاتب الناشئ وسداً لنقص البيان العربى فى هذا الباب

الزيات

---

١ - محاورات أفلاطون

معذرة سقراط

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

تمهيد

كان أفلاطون فيلسوفاً فناناً على بعد ما بين الفن والفلسفة ، فقد دون آراءه كلها فى أسلوب الحوار الذى بلغ من الدقة والجمال حداً وضعه فى أسمى مراتب الفن . ونحن إذ نتقدم الى القراء بهذه الترجمة لمحاوراته ، إنما نلتمس العفو عما قد تصاب به تلك الآيات البينات من تشويه . على أن القارئ إذا فقد جمال الأسلوب فلن تضيع منه باذن الله دقة المعنى وأمانة النقل .

وهذا الحوار الذى نترجم لك اليوم ، كتبه أفلاطون ليصور به دفاع سقراط عن نفسه يوم محاكمته بتهمة الالحاد وإفساد الشباب . ولسنا ندرى الى أى حد تطابق هذه الصورة الأفلاطونية الحقيقة الواقعة . هل احتفظ أفلاطون بألفاظ سقراط نفسها أو ما يقرب منها ؟ أم أنشأها إنشاء ليعبر بها عما كان يجب أن يكون من سقراط فى دفاعه ؟ أم هى قصة جمعت بين الطرفين ، فأثبتت ما قيل وأضافت اليه ما كان يجب أن يقال ؟ وسواء أكانت هذه أم هذه أم تلك ، فهى على كل حال تصور روح سقراط فى الحديث تصويراً دقيقاً ، وتحلل نزعته تحليلا بارعاً ، فلا يسع القارئ وهو يقرأ هذا الحوار الذى دبجته براعة أفلاطون الا أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه إنما يتلو عبارة تحركت بها نفس سقراط وجرى بها لسانه ؛ فشخصيته بارزة فى كل سطر من سطوره بروزاً لا يخطئه النظر ، فأنت ترى لمحات من التهكم اللاذع الذى امتاز به سقراط فى حديثه ، وأنت تلاحظ روح التحدى جلية واضحة ، والتحدى طابع معروف فى شخصية سقراط . وسترى كذلك فى هذا الحوار تفككاً فلا تتصل أجزاؤه بصلة من منطق قوى ، فكأنما أراد أفلاطون بهذا أن يكون أميناً فى الصورة التى يقدمها عن سقراط ؛ فسقراط لم يكن فى حياته يعنى بمنطق الحديث . فهو إذا بدأ حواراً مع آخر لا يلبث أن يشذ به باستطراده من ناحية ، وبالأسئلة العرضية التى يطرحها مناقشوه أثناء الحديث من ناحية أخرى ، فيخرج الكلام آخر الأمر ، وليس فيه وحدة تربط أوله بآخره

وقد تعمد أفلاطون فى هذا الحوار أن يسوق إلى القارئ أبرز ما حدث لسقراط فى حياته ليكون عنه فكرة متصلة ، وقد كان أفلاطون فى ذلك قديراً ماهراً ، حتى لا يكاد يشعر القارئ أن تلك الحوادث أضيفت إضافة مدبرة ، بل جاءت عفواً كما اقتضى منطق الحديث

يبدأ سقراط فى هذا الدفاع ، أو إن شئت تعبيراً دقيقاً فقل يبدأ أفلاطون فى دفاعه عن سقراط ، بأن قسم المتهمين الى قسمين : الرأى العام من ناحية ، وطائفة من الأشخاص النابهين من جهة أخرى ؛ ثم تخلص للقضاة نقط الاتهام ، وأخذ يفندها واحدة فواحدة . وعلى الرغم من هذا فقد حكم عليه بالموت . ولما طلب اليه أن يقترح حكما — كما جرت بذلك عادة القضاء الأثيني — لتقف المحكمة موقفاً وسطاً بين الحكمين ، أجاب فى تهكم لاذع وحكمة نادرة . وانتهى الأمر وقضى عليه بالموت

***

نص الحوار

لست أدرى أيها الأثنيون كيف وقعت من نفوسكم خطب متهمىّ ، أما أنا فقد أحسست لكلماتهم الخلابة أثراً قوياً أنسيت معه نفسى ، وإنهم لم يقولوا من الحق شيئاً . ولشد ما دهشت إذ ساقوا فى غمر باطلهم نذيراً لكم أن تكونوا على حذر فلا تخدعكم قوة فصاحتى . يا خجلتهم مما يزعمون ! فاذا نبست ببنت شفة نهضت لكم دليلاً على عىّ لسانى وافتضح أمرهم ؛ وانهم بذلك عالمون ، ولكنهم يمارون ولا يخجلون . أم تراهم يطلقون الفصاحة على قوة الحق ؟ إذن لأشهدت أنى مصقع بليغ . . ألا ما أبعد الفرق بينى وبينهم ! فهم كما أنبأتكم لم ينطقوا كلمة صدق ولم يقولوا الا كذباً ، أما أنا فخذوا الحق منى صراحا ، ولن أصوغها عبارة منمقة كما فعلوا ، ولكنى سأسوق الحديث اليكم عفو ساعته ، ولست أشك فى أنه الحق . فلن أقف يوماً بينكم أيها الأثينيون موقف الخطيب ما دمت حياً ، فلا يرجُنّ الآن أحد منى خطاباً ، ولعلى أظفر منكم بهذا الفضل : إن جاءت فى فى دفاعى كلمات قلتها من قبل ، وسمعها بعضكم فى الطريق أو عند موائد الصيارفة أو فى أى مكان آخر ، فلا تدهشوا ولا تقاطعوا الحديث ، لأننى أقف — وقد نيفت على السبعين عاماً — للمرة الأولى فى ساحة القانون ، فلم آلف هذا المكان ، ولم أتعود تقاليده وطرائقه ، فانظروا الىّ نظركم الى الغريب تلتمس له المعذرة لو جرى لسانه بلغة قومه ولهجة وطنه . وما أحسبنى بذلك أطلب شططاً ، فدعكم من عبارتى وقبحها ، وانظروا فى عدالة القضية وحدها ، واذا حكم منكم قاض فليحكم بالعدل ، واذا نطق منكم فلينطق بالحق .

ولأبدأ أولاً برد اتهام الطائفة الأولى من المدعين[1] ، ثم أستطرد الى دعوى الفريق الثانى ؛ فلقد اتهمنى من قبل نفر كثير ، ولبثت دعواهم الباطلة تتردد أعواماً طوالاً ؛ وإنى لأخشاهم أكثر من هذا الرجل (أنيتس) وعصبته ، وإن كيدهم لعظيم ، ولكن أولئك الذين نهضوا اذ كنتم أطفالاً فملكوا ألبابكم بأباطيلهم لأشد من هؤلاء خطراً ، فهم يحدثونكم عمن يسمى سقراط أنه حكيم يسبح بفكره فى السماء ، ثم يهوى به الى الغبراء ، وانه يخلع على الباطل رداء الحق . أولئك هم من أخشى من الأعداء ، فقد أذاعوا فى الناس هذا الحديث ، وما أسرع ما يظن الدهماء أن هذا الضرب من المفكرين كافر بالآلهة . كثيرون هم أولئك المدعون ، ودعواهم قديمة العهد ، نشروها حين كنتم فى سن الطفولة أو الشباب ألين انطباعاً . ولم يكادوا ينطقون بالدعوى حتى انطلقت تحمل عنى فى ذيلها السوء دون أن تجد لها مفنداً . وأهول من ذلك كله أن لبثت أسماؤهم مجهولة لا أعلمها لولا ذلك الشاعر الهازل[1] الذى ساقته الظروف . وإنه لمن العسير أن أتحدث الى أشخاص هؤلاء الهجائين الذين نفذوا الى نفوسكم بما يحملون من ضغينة وحقد ، صدر فيها بعضهم عن عقيدة ، ثم ألقوا بذورها فى قلوب الآخرين ؛ فلا أستطيع أن أدعوهم الى هذا المكان لأستجيبهم ، فأنا ان دافعت الآن فانما أدافع أشباحاً ، وأستجيب حيث لا مجيب . وإنى لأرجو أن تقبلوا ما فرضته لكم من قبل بأن الأعداء صنفان : فطائفة حديثة العهد وأخرى قديمته ، وأحسبكم ترون صواب رأيى فى أن أبدأ بالرد على هذه الطائفة الأخيرة ، فدعواها أقدم عهداً وأكثر ترددا .

وبعد ، فها كم دفاعى ، ولعلى أستطيع فى هذه البرهة القصيرة التى تفضلتم بها على أن أمحو شائعة السوء التى قرت عنى فى أذهانكم طوال هذا الزمن ، وعسى أن أصيب توفيقاً إن كان فى التوفيق خير لى ولكم ، ولعل كلماتى تصادف منكم قبولاً حسناً . فأنا عليم أنى مقدم على أمر عسير ، وانى لأقدر مهمتى حق قدرها ، فليقض الله بما يريد . وها أنذا أبدأ دفاعى طوعاً للقانون

واستهل الحديث بهذا السؤال : أى ذنب جنيت حتى حامت حولى الشبهات فاجترأ مليتس أن يرفع أمرى للقضاء ؟ ماذا يقول عنى دعاة السوء ؟ ها كم خلاصة ما يدعون : « قد أساء سقراط صنعاً ، وهو طلعة يصعد البصر الى السماء وما تحوى ، ثم ينفذ به تحت أطباق الثرى ، وهو يلبس الباطل ثوب الحق ، ثم إنه يبث تعاليمه فى الناس » تلك هى جريرتى ، وقد شهدتم بأنفسكم فى ملهاة أرستوفان كيف اصطنع شخصاً أسماه سقراط جعله يجول قائلاً إنه يستطيع أن يسير فى الهواء ، وأخذ يلغو فى موضوعات لا أزعم أنى أعرف عنها كثيراً ولا قليلاً — لست أقصد بهذا أن أسىء الى أحد من طلاب الفلسفة الطبيعية — ولكن شد ما يسوؤنى

(١) يقصد بها الرأى العام

(١) يقصد به أرستوفان الذى مثل بسقراط فى روايته « السحاب » أشنع تمثيل

أن يتهمني بها مليتس . أيها الأثنيون ! الحق الصراح أني لا أتصل بتلك الدراسة بسبب من الأسباب ، ويشهد بصدق قولي كثير من الحضور ، فاليهم أحتكم . انطقوا إذن يا من سمعتم حديثي وأنبئوا عني جيرانكم ، هل تحدثت في مثل هذه الأبحاث كثيراً أو قليلاً ؟ أنصتوا إلى جوابهم لتقطعوا بصدق مما يقررون

أما القول بأني معلم أتقاضى عن التعليم أجراً فباطل ليس فيه من الحق أكثر مما في سابقه ، على أنني أمجد المعلم المأجور إن كان معلماً قديراً . فهؤلاء جورجياس الليونتي (Gorgias of Leontium) وبروديكوس الكيوسي (Prodicus of Ceos) وهبياس الاليزى (Hippias of Elis) يطوفون بالمدن يحملون الشباب على ترك بني وطنهم الذين يعلمونهم ابتغاء وجه الله ليسعوا اليهم ، فلا يؤجرونهم وكفى ، بل يحمدون لهم ذلك الفضل العظيم . ولقد أتاني نبأ فيلسوف من بارا يقيم في أثينا ، حدثني عنه رجل صادفته ، قد بذل للسوفسطائيين مالاً طائلاً ، هو كالياس بن هپونيكوس . ولما أنبأني أن له ابنين سألته : لو كان ابناك يا كالياس حمارين أو بقرتين لما شق عليك أن تجد لهما مدرباً ، فما أهون أن تستخدم مدرب الخيول أو فلاحاً يقومهما ويبلغ بهما حد الكمال في حدود فضيلتهما ، ولكنهما إنسانان من البشر ، فمن ذا فكرت أن يكون لهما مؤدباً ؟ أثمت من يدرك فضيلة الانسان وسياسة البشر ؟ حدثني فلابد أن تكون قد تدبرت الأمر ما دمت والداً . فأجاب : « نعم وجدت . فسألته : من هو ذا وأين موطنه وكم يؤجر ؟ فأجاب هو أڤينس البارى وأجره خمسة دراهم » فقلت في نفسي : « أنعم بك يا أڤينس إن كنت تملك هذه الحكمة حقاً ، وتعلمها بمثل هذا الأجر الضئيل ، فلو كانت لدي لزهيت وأخذني الغرور ، ولكني بحق أيها الأثينيون — لا أعلم من تلك الحكمة شيئاً »

رب سائل منكم يقول : « وكيف شاعت عنك تلك التهمة يا سقراط إن لم تكن قد أتيت أمراً إدّا ؟ فلو كنت فرداً كسائر الناس لما ذاع لك صوت ولا دار عنك حديث . أنبئنا إذن بعلة هذا إذ يؤلمنا أن نحكم في غير صالحك » وإني لأحسب هذا تحدياً رقيقاً ، وسأحاول أن أوضح لكم لم دعيت بالحكيم ، ومن أين جاءتني الأحدوثة السيئة ، فأرجو أن تنصتوا لقولي ، ولو أن بعضكم سيظن بي الهزل ، ولكني أعترف أنني لن أقول الا الحق خالصاً . أيها الأثنيون ! إن لدي ضرباً معيناً من ضروب الحكمة ، كان مصدر ما شاع من أمري ، فان سألتموني عن هذه الحكمة ما هي ؟ أجبت أنها في مقدور البشر ، وإلى هذا الحد فأنا حكيم . أما أولئك الذين كنت أتحدث عنهم فحكمتهم معجزة فوق مستوى البشر ، لا أستطيع أن أصفها لأنني لا أملكها ، ومن ظن أنها لدي فقد ظن باطلاً ، وكان أشد ما يكون بعداً عن حقيقتي : أيها الأثينيون ! أرجو ألا تقاطعوني ولو بالغت في القول ، فلست قائل هذا الذي أرويه لكم ، ولكني سأنيب عني شاهداً جديراً بالثقة ، ليحدثكم عن حكمتي — فسينبئكم هل أملك من الحكمة شيئاً ؟ وإن كنت أملك ، فما نوعها — وأعني بذلك الشاهد إله دلفي . إنكم ولا ريب تعرفون (شريفون) ، فهو صديقي منذ عهد الصبا ، وهو صديقكم مذ ظاهركم على نفي من نفيتم ثم عاد أدراجه معكم . كان شريفون كما تعلمون صادق الشعور في كل ما يعمل ، فقد ذهب الى معبد دلفي وسأل الراعية في جرأة لتنبئه — وأعود فأرجو ألا تقاطعوني — سأل الراعية لتنبئه إن كان هناك من هو أحكم مني ، فأجابت النبيّة أن ليس بين الرجال من يفضلني بحكمته . لقد مات شريفون ، ولكن أخاه ، وهو في المحكمة بيننا ، يؤيد صدق ما أروى

وفيم أسوق اليكم هذا الخبر ؟ ذلك لأنني أريد أن أتقصى لكم علة ما ذاع عني من سوء الذكر . لما أتاني جواب الراعية ، قلت في نفسي : ماذا يعني الاله بهذا ؟ إنه لغز لم أفهم له معنى ! أنا عليم أن ليس لدي من الحكمة كثير ولا قليل ، فماذا عساه يقصد بقوله إنني أحكم الناس ؟ ومع ذلك فهو إله يستحيل عليه الكذب ، لأن الكذب لا يستقيم مع طبيعته . ففكرت وأمعنت في التفكير ، حتى انتهيت آخر الأمر الى طريقة أحقق بها القول . اعتزمت أن أبحث عمن يكون أحكم مني ، فان صادفته ، أخذت سمتي نحو الاله لأرد عليه ما زعم ، فأقول له : « هاك رجلاً أكثر مني حكمة ، وقد زعمت أني أحكم الناس » . لهذا قصدت الى رجل من الساسة — ولا حاجة بي الى ذكر اسمه — فقد عرف بحكمته ، وامتحنته فانتهيت إلى النتيجة الآتية : لم أكد أبدأ معه الحديث حتى قرت في نفسي عقيدة لا تمحى بأنه لم يكن حكيماً حقاً ، على الرغم من شهادة الكثيرين له بالحكمة ، وعلى الرغم مما ظنه هو نفسه في حكمته ، وقد جاوز به الغرور شهادة

الشاهدين ، فحاولت أن أقنعه بأنه وإن يكن قد ظن فى نفسه الحكمة ، إلا أنه لم يكن بالحكيم الحق ، فأدى به ذلك الى الغضب مني ، وشاطره فى غضبه كثيرون ممن شهدوا الحوار وسمعوا الحديث ، فغادرته قائلاً فى نفسى : إنى وإن كنت أسلم أن كلينا لا يدرى شيئاً عن الخير والجمال . فانني أفضل منه حالاً ، لأنه يدعى العلم وهو لا يعلم شيئاً . وأما أنا فلا أدرى ولا أزعم أنني أدرى — ولعلى بهذا أفضله قليلاً . ثم قصدت الى آخر ، وكان أعرض من سابقه دعوى فى الفلسفة ، فانتهيت معه الى النتيجة نفسها ، وعادانى هو الآخر ، وأيده فى موقفه عدد كبير

يتبع زكى نجيب محمود

كتاب الأوراق

وخطره فى كتابة التاريخ

بقلم محمد طه الحاجرى

فى ذمة الأدباء من أهل هذه اللغة الكريمة للأدب العربي من ناحية ، وللروح العلمية السائدة من ناحية أخرى ، دين لامعدل لهم عن أدائه ، ولامترخص لهم فى الوفاء به ، اذ كان مرجع الأمر فيه شخصيتهم المعنوية التى يظهرون بها ، والى كيانهم الأدبي الذى لاحياة لهم من دونه ، والى شعورهم بالروح العلمية المتغلغلة فى كل عناصر الحياة ومظاهر الوجود . ثم هو متصل فوق هذا بالقومية التى نفاخر بها ونحرص على توثيق عراها وتقوية أسبابها . ذلك هو العناية بتاريخ هذا الأدب الذى تمده خمسة عشر قرناً عناية تظهر ، فيما أحسب ، فى كتابة هذا التاريخ ، وإقامته على أسس قوية من أساليب البحث العلمى ، ومناهج النقد الأدبي ، والتبسط فى ذلك بما يطوعه الجهد الواسع والنفس الممتد ، والعزمة القوية ، والروح العلمية المتبصرة ، والرغبة المتوثبة فى إقامة كياننا المصري على أقوى ما تفاخر به الشعوب وتعتمد عليه الأمم ، فما أحسب أن أدب أمة من الأمم بلغ من سعة المادة ، وامتداد العمر ، ومجاراة الحياة ، ومساوقة الزمن مابلغه الأدب العربى ، ثم لا أحسب أن أدب أمة من الأمم منى بما منى به هذا الأدب من إغفال أهله أن يقيموه على أسس هذا العصر .

فتاريخ الأدب عندنا علم حديث النشأة ، غض التكوين ، لايكاد يرجع ميلاده الى ماوراء الجامعة الأولى ، ولايكاد يثبت فى طريقه لما يحتوشه من أسباب الضعف ، ومايعوزه من عناصر الحياة ، ومايحيط به من شتى العوامل التى تثبطه وتصده وتحمل عليه بما لايحتمله الجلد القوى بله الضعيف الواهن ، وإنما هى القوة الذاتية التى تمسكه ، فمن أقدس الواجبات علينا لقاءه أن نمكن له فى الحياة ، وأن نوفر له العناصر التى يقوم بها كيانه الصحيح ، وهى تتلخص فى أمرين لا بد منهما : تقرير الأسلوب العلمى ، واستجماع المادة التى يتكون منها تاريخ الأدب العربي .

أما أول الأمرين فقد كفانا مؤونته الأساتذة الأجلاء الذين شقوا لنا ذلك الطريق ، ووضعوا أمامنا معالم البحث العلمى ، وبصرونا بمناهج النقد والتمحيص والموازنة وما الى ذلك .

أما المادة التاريخية فهى العنصر الأول فى كتابة التاريخ ، وكلما توفرت لدى الباحث ، واتسعت نواحيها ، وتنوعت أبوابها ، وتعددت مذاهبها ، وكثرت الأيدى التى تقدمها ، وأخذت تضرب فى شتى جهات الحياة ، وتتناول الأطراف المختلفة ، كان المؤرخ أكثر توفراً على بحثه ، واستضاء أمامه العصر الذى يؤرخه ، فأخذ يصفه وصفاً أشبه باليقين ، ويقرر التيارات الأدبية فيه تقريراً أقرب الى الحقيقة ، بعد أن يكون قد نظر فى أجزاء هذه المادة نظر الناقد البصير ، فجعل يوازن بينها ، ويقارن بين مختلف أجزائها ، وليكن هناك مايكون من التناقض فى الروايات ، والتضارب بين الأقوال فذلك ، فيما أحسب ، أدعى الى استبطان الحقيقة المستكنة فى ثنايا هذه الاختلافات ، وأقرب بالباحث الى ثلج الصدر وبرد اليقين .

والأدب العربى يملك من هذه الناحية ثروة طائلة بالرغم من عوادى الزمن ، والنكبات التى أصابت المكتبة العربية فى مناسبات مختلفة ، ولكنها ثروة ضائعة لا تجد من يستغلها إلا قليلاً ، إذ لم يقدر لها من ينشرها من قبورها ، ويبعث فيها الحياة التى تعرفها ، حتى يستطاع استغلالها ، وإنما هى جهود ضئيلة بالنسبة الى عظم العمل ، وجلال التبعة .

ولقد تقدمنا الفرنجة فى هذا السبيل حتى أخجلونا وأبهظوا عاتقنا بفضلهم ، وضربوا لنا خير الأمثال بما نشروا من كتب ، وما قاموا به عليها من عناية بتصحيحها وفهرستها ومقارنتها ، فى تواضع العالم المخلص ، وهدوء الباحث المستبصر . فدلوا بهذا على روح علمية ثابتة الآساس ، ومعرفة حكيمة بطرائق البحث الصحيح .

لست الآن بصدد البحث عن جهود المستشرقين العظيمة المتوالية فى سبيل الأدب العربى ، وإنما سبيلى الآن أن أتحدث عن كتاب من خيرة الكتب التى كادت تتلاشى فى غمار القرون وثنايا النسيان وعوادى الاهمال ، فنشره مستشرق ناشىء ، هو المستر هيورث دن ، وخلع عليه هذا المظهر الذى تتجلى عليـه الروح العلمية فى بهائها ورونقها وجلالها . ذلك هو كتاب الأوراق لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ .

والصولى إمام من خـير أئمة الأدب ، وكاتب من أفضل الكتاب الذين تزدهر بهم تلك الفترة من الزمن ، وعالم ضليع غزير المادة جيد الرواية ، يروى عنه أبو الفرج كثيراً فى أغانيه ، وأستاذ جليل تخرج عليه كثير من رجالات ذلك العصر مثل أبى عبد الله محمد بن عمران المرزبانى ، وهمك من رجل ، وناهيك من عالم . وقد ترك ثروة كبيرة من الكتب الجليلة فى قيمتها الأدبيـة والتاريخيـة ، نقرأ بياناتها فى كتب الفهارس ، ثم ننطوى على أنفسنا حسرة وأسفاً على ذلك الكنز الذى طاحت به الطوائح . ولا أحسب أنه قد بقى لنا منه إلا هذا الكتاب الذى عنى به المستر دن هذه العناية ، وكتاب آخر فى أدب الكتاب نشره منذ عشر سنوات العلامة الأثرى المرحوم على بهجت . وكان كتاب الأوراق فى حكم تلك الكتب التى لانعلم شيئاً عن مصيرها ، لولا تلك الروح العلمية المتوثبة التى حفزت ذلك الشاب العالم على إخراجـه للناس فى ثوب علمى جليل ، ومعاناة تحقيقه وتمحيصه ومقارنة رواياته ، فأضاف بذلك الى المادة التاريخية لعصر بنى العباس ماهو جدير أن يضىء الطريق أمام الباحث المؤرخ فى كثير من مجاهل هذا العصر ومسائله الملتوية الغامضة .

وقد نجد فى ترجمة الصولى كلاماً مختلف الأطراف بين مدح وقدح ، وتقـدير وتشهير ، ولكنا لانشك ، إذ نقرأ كتابه « الأوراق » أنه كان رجلاً عالماً يمثل الروح العلمية خير تمثيل ، ويضعها فوق كل اعتبار ، متثبتاً على طريقة عصره فى النقد والرواية ، لايميل مع الهوى ، ولايذهب مع الخواطر ، ولايقف دون النقد والمقارنة والتمحيص .

عرض فى أثناء حديثه عن أحمد بن يوسف الى رواية يحدث ابن طيفور عنه بها ، وخلط فيها ، فلم يدعها الصولى تمر دون أن ينقدها بما طوع له علمه الغزير وروحه العلمية القوية ، ثم كتب هذه العبارة التى نثبتها هنا لتدل على تثبته العلمى من ناحية ، وعلى مظهر من مظاهر الروح العلمية فى ذلك العصر ، من ناحية أخرى .

« وقد رأيته (يعنى ابن طيفور) بالبصرة سنة سبع وسبعين ومائتين ، وقدمها إلى أحمد بن على المادرائى ، وكتبت عنه مجلسين أو ثلاثة ، فلما رأيته صحفياً لم أرعنده ما أريد تركته . ويعز على أن أذكر أحداً من أهل الأدب بسوء وأن أستخفه ، ولـكن لابد من أن نعطى العلم حقه ، ونضع الحق موضعه »

أفرأيت إلى أى حد من الاجلال والتقدير كان نظر الرجل إلى العلم والحقيقة والأدب ؟

يمثل لنا هذا الخبر الصغير الذى ينبغى أن يرجع اليه القارىء فى الكتاب صفتين من أبرز صفات الصولى وكثير من علماء ذلك العصر : وهما سعة المادة ، والتثبت فى الرواية . وعلى هاتين الصفتين قامت عظمة السلف ، وعليهما يجب أن تـكون الدعائم التى نقيم عليها أبحاثنا العلمية فى تاريخ الأدب ، فلن تغنينا كل أساليب البحث ومناهج النقد ، عن سعة المادة وتوفر المصادر ، والتقصى فيها بكل ما يتسع له الجهد ويطوعه الامكان .

فاذا كنا نحتفى بكتاب الأوراق ، فانما ذلك لأنه صورة لتلك الشخصية العظيمة فى تاريخ الأدب العربى ، ومثال من خير الأمثلة عن الطريقة الأدبية لأسلافنا فى معاناة الرواية ونقدها وتمحيصها . والتوفر على الجمع والمقارنة ، ثم هو فوق هذ كله ، زيادة فى المادة التاريخية ، وتوطيد لأسس البحث العلمى ، بالنسبة إلى عصر من أشد عصور الأدب العربى اختلاطاً واضطراباً ، وأغصها بالتيارات المختلفة ، والنزعات المتباينة المتشابكة .

وهذا القسم الذى نشر من كتاب الأوراق خاص بأخبار الشعراء المعاصرين ، وقد سلك الصولى فى تصنيفهم مسلكاً حسناً جديراً بالتنويه ، ذلك أنه راعى فى ذلك أسرهم : فذكر أولاً

أسرة اللاحقيين، ثم أسرة احمد بن يوسف وزير المأمون، ثم أسرة السلمى أشجع بن عمرو. وهذا نحو جديد فى التصنيف الأدبى جدير بأن يغتبط به الذين يتتبعون الصفات الوراثية المشتركة، والذين يرون فى الأدب صوراً لقوانين الوراثة المقررة.

وإذا كانت هذه طريقته فى عرض الشعراء، لم يتقيد بذكر المشهورين منهم، ولا حبس نفسه عليهم، وقد صرح هو نفسه بهذا الاتجاه فى آخر كتابه فقال: «قد جئت بأكثر أشعار هؤلاء إذ كانوا شعراء ظرافاً كتاباً لا يعرفهم الناس، ومن عرفهم لا يعرف أخبارهم... وانما أستقصى أشعار من لا يعرفون وأخبارهم» وكذلك كان الصولى، فقد انطلق فى ذكر هؤلاء الشعراء المغمورين، وسرد أخبارهم ورواية أقوالهم وأشعارهم، مما هو جدير بالرواية، حقيق أن ننعم فيه النظر، ونستخلص منه كثيراً من الحقائق التاريخية التى قد لا تتضح فى مشاهير الشعراء، فقد تقيد الشهرة صاحبها بكثير من القيود التقليدية، وتنشر حوله غشاء مصنوعاً، حتى يصبح من العصر الذى يعيش فيه، صورة كثيرة التزوير والتمويه. على حين ينطلق الشاعر المغمور فى سبيله يصور من نفسه وعصره وبيئته ما وسعته الحرية فى التعبير، والقدرة على التصوير.

ولعل كبار الشعراء هم صور من عبقرياتهم، أكثر من أن يكونوا صوراً لعصورهم وبيئاتهم، وما تموج به من شتى النزعات ومختلف الصور والتيارات.

فكتاب الأوراق يضع بين أيدينا إذن مصدراً عظيم الخطر من مصادر التاريخ، ويبصرنا بكثير من الحالات التى سيطرت على الأدب فى ذلك العصر، بما يكتبه عن أولئك الذين انطبعوا بحياتهم، وصوروها تصويراً حراً طليقاً من قيود الشهرة.

ومن قبل عني المفضل الضبى بجمع شعر الشعراء المقلين تخدم بذلك الاتجاه التاريخى الذى نتوجهه أجل خدمة، إذ كانت المفضليات أصدق صورة للعصر الجاهلى.

هذه ميزة شديدة الوضوح من ميزات كتاب الأوراق، لها خطرها فيما نقصد اليه من الدراسة الأدبية. ولست أتعرض الآن لشرح هذا الوجه من الخطورة، ولعله يتاح لنا فيما بعد أن ندرسه دراسة مفصلة تتسع لما لا تتسع له هذه الكلمة العاجلة.

ومما يستطرف ويلفت النظر فى هذا الكتاب، أنه يظهرنا على أولية ذلك النوع من الشعر الذى يسميه الفرنسيون الشعر التعليمى La poésie didactique فى الأدب العربى، فنحن نرى أنه قد بدأ بأبان بن عبد الحميد اللاحقى، فقد صنع قصيدة سرد فيها أحكام الصيام على نحو ما نعرفه فى منظومات العلوم. والظاهر أن أبان كان مضطلعا بهذا النوع من الشعر، فقد نظم كذلك كتاب كليلة ودمنة، وكتاب المنطق، وكان ذلك فنا طريفاً. وقد ذكر الصولى أنه عاتب البرامكة على قلة عطائهم مع خدمته لهم وموضعه منهم، فأشار عليه الفضل أن يقول شعره فى هجاء الطالبيين، فتذمم أبان، ثم قال قصيدة استطرفها الفضل، وهى لا شك طريفة. فقد سلك فيها مسلكا عجباً فى الشعر، إذ أخذ يجادل الطالبيين فى دعواهم جدلا فقهيا بحتا مستندا الى أحكام الوراثة فى الأسلام وما يقرره الشرع فى حالات الحجب والهبة وما إلى ذلك. ولما جاء بهذه الأبيات إلى الفضل قال له: ما يرد اليوم على أمير المؤمنين شىء أعجب اليه من أبياتك.

هذا تاريخ نوع من الشعر كثير الشيوع فى اللغة العربية، على أن لهذا فيما أحسب، بعض الدلالات الأخرى على بعض العوامل فى ذلك العصر.

وعقد الصولى فصلا عما روى فى صحة دين أبان، وعندى أن هذه النصوص التى تروى فى هذا الصدد عظيمة الخطورة فى تحقيق المسألة الدينية فى عصر العباسيين: ذلك الأمر الذى اضطربت فيه الأقوال واشتبهت فيه الظنون، واختلفت فيه منازع الرأى. ولا يزال فى حاجة إلى التحقيق العلمى القائم على النقول الصحيحة والنقد المنزه البصير.

وبعد فما نستقصى فى بيان قيمة كتاب الأوراق من ناحية التاريخ الأدبى، وحسبنا أن يكون هذا الكتاب زيادة فى المادة التى ترتكز عليها أبحاثنا، وأن يكون واضعه أبو بكر الصولى، وهو من عرفنا، وأن ينشر نشرا علمياً خالصاً لوجه العلم والأدب. حتى نحتفى به، ونرحب بظهوره.

محمد طه الحاجرى

الشـــباب فى أمريكا

حركته وتربيته وحياته السياسية

ومقارنته بالشباب فى أوروبا

بقلم ابراهيم ابراهيم يوسف

لا نستطيع أن نفهم النزعة الجديدة التى تملكت أفئدة أبناء الجيل الحديث فى الولايات المتحدة الأمريكية ، إلا اذا فهمنا قبل كل شىء الفوارق الرئيسية بين الحركة العامة للشباب فى أوروبا ومثيلتها فى أمريكا . وأول ما يلفت النظر عدم اهتمام الشباب الأمريكى اهتماماً جدياً بالروحانيات والاجتماعيات ، بينما نجد زملاءهم فى أوروبا على عكس ذلك . كذلك هم لا يعرفون التكالب على الدرس بنفس النهم الذى نجده عند الشباب الأوروبيين . والواقع أن أمريكا برغم مالها من تنوع فى الآداب لا تعرف حتى الساعة ما يسمى « بثورة الشباب » كتلك التى عرفناها لشباب الألمان مثلاً لنهاية القرن التاسع عشر وبدء القرن العشرين . وقد تكون التقاليد الاجتماعية التى توارثها الشباب الأمريكى عن سلفه والتى يرعاها كل الرعاية سبباً ، إذا ما أضيف إليها مركز الشباب الاقتصادى ، يحول بينه وبين تحمل عبء مسئوليات جسام . وركن الشباب إلى تلك التقاليد وراح يحافظ عليها فتجلت فى حياته السياسية ، ثم سرعان ما انتقلت العدوى بعد ذلك إلى كل ميدان من ميادين حياة الشباب . ورسخت هذه التقاليد فى النفوس بدلاً من أن يتم التعاون على مقاومتها لتتلاشى . فمثلاً بينما كان الشباب الألمانى منذ ثلاثين سنة يثور على سلطة العائلة وسلطة المدرسة ولا يأبه بسلطان الدولة ولا بسلطان الكنيسة ، كان الشباب الأمريكى ينزع فى نفس الوقت إلى انتهاج ما ثار عليه زميله الأوروبى ، وكان مما لابد منه أن تنبذ أمريكا آراء أوروبا وطرقها فى تربية النشء وتبحث لها عن أسس جديدة ، فاهتدت إلى جعل الدراسة العلمية فى المرتبة الثانية من منهج التعليم . وما هى إلا سنوات حتى استوثق رجال التربية والتعليم فى أمريكا من أن النظريات والعمليات التى سار عليها زملاؤهم فى أوروبا لم تعد صالحة للعالم الجديد ، فاستعاضوا عن « القوانين العامة » فى علم النفس بفكرة رعاية الشباب وتهذيبه عملياً . وهم يتبعون فى ذلك رأى زعيم التربية الحديثة فى أمريكا المستر جون ديوى الذى تعتبر آراؤه إنجيلاً للمربين الأمريكيين . وخلاصة آرائه : أن العلم والمعرفة يجب أن ينتزعا من الحياة ، وأن لا علم إلا إذا جاء عن طريق ممارسة العمل ومزاولة الأمور العملية . وهذه الأسس هى التى يعبر عنها « بطريق الشروع » القائمة فى علم النفس على « المحاولة والخطأ » . وقد يهزأ الأوربيون بهذه النظريات العملية ، وهذا النوع من التربية . ولكنهم ينسون أن تربية النشء وفق هذه الأصول تكوّن عندهم قوة الارادة وصحة الحكم على الأشياء . ومن أهم المبادئ المعمول بها فى أمريكا لتربية النشء اعتبار الشباب وفرديته فى مرتبة لا تقل عن مقام المعلم وعلمه . وكثيراً ما ينعى علماء التربية الأمريكيون على زملائهم فى أوروبا التسرع فى الحكم بأن الطفل له شخصية أقل خطراً من شخصية الرجل المكتمل الرجولة . ولكن علماء التربية الأوروبيين يقولون هم الآخرون بأن الآراء الأمريكية تحوى جرثومة تهدد نظام التربية والتعليم من أساسه ، كما أن تلك الآراء تعمل على إضعاف مركز المربى فى نظر النشء وإضعاف الثقة به . ولكن الأمريكيين يقولون إن المسألة عكس ذلك تماماً . ثم إذا نظرنا إلى المدارس الأمريكية على اختلاف أنواعها ، ولاحظنا تباين الأعمار فى الفصول ، حكمنا بأن النظام كما يفهمه الأوروبيون ليس له أثر ملموس فى هذه المدارس . وكثيراً ما قال المربون الأوروبيون عند أول مشاهداتهم للشباب الأمريكى : « يالها من فوضى ! » إذ يجدون الطلبة هنالك يتوجهون بكلياتهم إلى شخص الأستاذ ، أما اهتمامهم بدرسه فأمر ثانوى لديهم . ولهذا نجد بين الأساتذة والطلبة علاقة ألفة قد تبدو أشبه بالصداقة التى يضيع معها كل نظام ، ولعل السر الذى يفسر لنا تلك الألفة هو أن ٩٠٪ من مجموع المعلمين فى المدارس الأولية والابتدائية والثانوية فى كافة البلاد الأمريكية نساء . ولا يعوق المعلمة عملها لو أن لها زوجاً وكانت فى مقتبل العمر . ثم هنالك ظاهرة غريبة أخرى قد لا نجد لها مثيلاً فى أى بلد أوروبى ، تلك هى اعتبار المدرسة والكلية مزرعة يتعهد فيها المدرسون بتربية الألفة والصداقة بين كل أفراد الشباب ، ولا زالت الكليات الأمريكية برغم ما وجه إليها من نقد محافظة كل المحافظة على حياة الأخوة بين الطلاب ، مانعة كل المنع تسرب دخلاء إلى

[البقية فى ذيل الصفحة التالية]

من شعر الشباب

رسالة

وردتْ وُرُودَ النافحاتِ رسالةٌ — هاجت كمين صبابتي وغرامي
رفّافة الصفحات يعبق نشرها — من طِيبِ عهدٍ غابرِ الأيامِ
مِن سالفِ اللذات لي في معهد — سلفتْ به اللذات كالأحلام
في معهد حفلٍ بأوطار الصِّبا — فيه حمدتُ على البعادِ مُقامي
نَشَرَتْهُ للعين الصحيفةُ وانجلى — في الطرس حُسْنُ صعيده المترامي
واستْفتُّ من بين السطور نسيمَهُ — ورأيتُ باسقَ سَرْحِهِ المتسامي
وتمثّلَتْ لي ساكناتُ غصونه — غِبَّ السماء نَوَادِيَ الأكامِ
وذكرتُ فيه كل ماضي بُكرة — طَلَعَتْ تألّقُ في الضياء الطامي
طالعتُ فيها الشمس تسكب ضوءها — تِبْرًا على الأنجاد والأعلامِ
وعشيةٍ خشعتْ كأنّ نسيمها — مُتَوَجِّسٌ من عودة الإظلامِ
راقبتُ فيها الليلَ من مُسْتَشْرَفٍ — يطغى على الأغوار والآطامِ
إني لأهوى فيه كلَّ طريفةٍ — حاولتُها وهَمَامَةٍ ومرامِ
وأحب أيامًا به ولياليــًا — موصولةَ الألطاف بالأنعامِ
وأحب أشعارًا نظمتُ عقودها — في ذلك الوادي النضير النامي
ما زلتُ أذكُرُ كلما رجّعتُها — أُفقًا جرى من سحره إلهامي
من مائه الرقراق أو أزهاره — قد صُغْتُها أو فَجْرِهِ البسّامِ
قد كان حفلًا بالقوافي جوُّه — في حالتيهِ : الصَّحْوِ والإرْزَامِ
ما ازدادَ إلّا فتنةً وملاحةً — لشُرُوقِ شمسٍ أو هُتُونِ غمامِ
يهفو لذكراه الفؤادُ إذا جرتْ — وتثور أشـواقي له وهيامي
ويجيئُه مني السّلامُ وإن أنَلْ — أقصى الأماني جئتُه وسلامي

فخري أبو السعود

حظيرة الشباب، وحتى في المدارس الابتدائية يتدرب الأطفال على معيشة أخوية كاملة المظهر، لايعنى فيها باتباع طريقة شحن الذهن بالعلوم

والواقع أن المثل الأعلى وطابع التربية عند الأمريكيين هو جعل التعليم المثالي عمليًا ووطنيًا

ابراهيم ابراهيم يوسف

تاجرة!!

دعتـه الى العش عصفورة — بتغريدها المطلق الساحر
شكت قبـله وحشة الانفراد — على ذلك الفَنَنِ الزاهر
وطول المقام بلا صاحب — تفيء الى جنحه القادر
يشاطرها واجبات الحياة — ويحمل من عبئها الواقر
ويمنحها عائدات الوداد — وتمنحه جذوة الشاعر
تفيض حنانًا الى قربه — ويسعد في حبها القاسر

***

قضى زمنًا شاديًا لاهيًا — بأحلامه هادىء الخاطر
يروح الى الأيك جم النشاط — فينعم في ظـله الناضر
وينهل من مائه المستطاب — ويستاف من عرفه العاطر

***

دعاه الصبا ولباناته — فلبى نداء الصبا الغامر
وفارق أحلامه الساحرات — الى صرحها الوارف العامر
الى حيث يقطف آماله — ثمارًا ويجني جَنَى الصابر
إلى حيث يملأ ما قد خلا — من القلب في الزمن الغابر

***

فلما أتاها رأى أنها — تهيب بذي الثروة الكاثر
وقد جعلت نفسها سلعةً — كسلعة صاحبنا التاجر
فهذا يسوم وذاك يزيد — وذا يتقي صفقة الخاسر
فعاد الى أيكه نادبًا — بذلك من جده العاثر
إذا ما الزواج غدا سلعة — فأنت على تركه عاذري

جنين — فلسطين ع ١٠

عرسٌ في مأتم

واعجبًا للمرء في جَهْلِهِ — وهو أخو اللُّبِّ شقيقُ النُّهى
يُمْعِنُ في غفلتِهِ حالمًا — ويحسبُ الضِّلّةَ كلَّ الهدى
يطوي شقاء العمرِ في سَكْرةٍ — نشوانَ يُغريه رفيفُ الرُّؤى
وهمانُ كلَّ العمرِ ما إن يعي — سرَّ الدُّنى . يا بؤسَه لو وعى!
يا سرّه ! أيةُ أُلعوبةٍ — هيّنةٍ في كفّ هـذي الدُّنى

وسرّ هذا الكونِ من شاعرٍ   مُستعجَمِ اللفظِ غريبِ اللّغى

***

شيّعتُ بالأمسِ زفاتِ الصّبا   فى لوْعةِ الثّكلِ ومُرّ الجوى
يقولُ لى صحْبىَ فى فرْحةٍ   هوّنْ على نفسِكَ بعضَ الأسى

***

للهِ قلبُ المرءِ منْ غامضٍ   يُحيّرُ اللبَّ ويُعيي الحِجى
يَبْكى لِما يُضحِكُ حيناً وقدْ   يُضحِكُهُ ما يَستفِزُّ البُكا
تراه كالدّمعِ همى رِقّةً   طوْراً وطوْراً كحَرونِ الصّفا

***

هذا الشبابُ الجهْمُ ما عندَهُ ؟   أتمَّ منْ بارقةٍ ترْتجى
صحْراؤهُ مُرْمِضةٌ رحْبةٌ   وكُلُّ شيْءٍ موحِشٌ فى الفلا
لا بُلبُلٌ يُطرِبُ إمّا شدا   ولا رُبى يَعْبقُ فيها الشّذى
أقطعُ وحْدى عرْضَها راكباً   صَهْوةَ آمالى ، أسيرَ القضا
أضْربُ فى آفاقِها حائراً   أجْرى وما لِلجرْى مِن مُنتهَى
أخُبُّ لا مؤنِسَ فى وحْدتى   تِلكَ ولا مِن سامرٍ فى الدُّجى
ظمآن ! إنْ آلٌ بدا مرّةً   بذلْتُ خلفَ الآلِ كلَّ القُوى
يحفُّ بى مِنْ أنسُرٍ موْكِبٌ   يرْقُبُ أنْ يأتى علىَّ الرّدى
تُرى أأنجو سالماً ؟ أم تُرى   أهوى صريعاً جاهداً للثرى

***

وفتيةٍ همُّهُمُ ملْعبٌ   وكُلُّهم كالزّهرِ غضُّ الصِّبا
ضمّتْهُمُ للعِلمِ فينانةٌ   كما يضمُّ الدّوحُ سِرْبَ القطا
مِثْلِ الظِبا فى مرَحٍ دائمٍ   يحْيونَ فى أحْلامِهم والمُنى
يا فرحَةَ الأطْفالِ ! لوْ أنّها   تدومُ للإنسانِ طولَ المدى
يأتى عليها الدهرُ مُستأسِداً   يُشْهِرُ غضْبانَ نيوبَ الأذى

***

يا رحمةَ اللهِ لعهدِ الصّبا   من حُلُمٍ ما رفَّ حتى اختفى

***

تقولُ لى النّفسُ وقدْ هالَها   أنْ تجدَ العهدَ الحبيبَ انطوى
أهكذا الأيامُ مجنونةٌ   مُسْرِعةٌ فى سيْرِها والسُّرى ؟

دمشق   أمجد الطرابلسى

غيرة ...

ذهبتُ كى أوقظه   من غفوة لم تنجل
فكان فى ضجعته   طفلاً من الهمّ خلى
عليه من شرخ الصبا   أبهى الثياب والحلى
بل كان مثل ملَكٍ   سمح تدانى من عل
وقد وجدتُ وجهه   فى النوم فى تهلل
ما باله منشرحاً   كأنه فى غزل ؟
بمن تراه يحتفى   فى نومه وينجلى ؟
عندئذ ألفيتنى   غيْرانَ قلبى يصطلى
فلم أدعه ناعماً   فى نومه المسترسل
بل هبّ مذعوراً على   عواصف من قُبَلى

كرمة ابن هانئ   حسين شوقى

لونجفـــلو

الشاعر الأمريكي الملهم

بقلم مأمون اياسى

لاشك أن « هنرى وودسورثو لونجفلو » الشاعر الأميركى النابه غنى عن التعريف الى قراء الانجليزية ، وأن قصته الشعرية « ايفانجلين » تعد فى طليعة الآثار الأدبية الخالدة التى خلفها ، وخدمة لمن لم يقرأوا هذا الشاعر العبقرى رأينا أن نكتب هذه النبذة عنه فنقدم لهم بذلك أحد الشعراء العالميين الذين يقدسهم الشعب الأميركى

***

ولد « لونجفلو » فى ٢٧ فبراير فى سنة ١٨٠٧ فى مدينة « بورتلاند » فى ولاية « مين » وقضى طفولته وصباه فى بيت واقع فى شارع « الكونجرس » ما زال الى الآن محفوظاً على حاله الأولى عند ما كان يعيش فيه الشاعر العظيم . ويحج الى ذلك البيت آلاف من الناس الذين يذهبون الى « بورتلاند » فى كل صيف ، ويدخلون اليه للتفرج على كل غرفة من غرفه ، وعلى مطبخه الذى ما زالت الأوانى الثقيلة مبعثرة على مواقده منذ مائة عام ونيف . ثم يصعدون الى غرفة فى الدور الثالث ليروا السرير الخشبى الذى كان ينام عليه « لونجفلو » ويطلوا من النافذة التى كان يرى منها المنارة الموصوفين فى إحدى قصائده

وكانت « بورتلاند» مدينة موافقة لفتى له روح « لونجفلو» الحساسة الرقيقة ، إذ كانت شوارعها الطويلة المظللة بالأشجار الوارفة ، وأحراجها المكتظة ، وشاطئها الشعرى الهادىء ميداناً خصباً لخياله الواسع

كان « لونجفلو» فى السادسة من عمره عندما عاد من المدرسة يوماً وناول والده شهادة — لم تزل محفوظة للآن — كتبت فيها معلمته بأنه تلميذ مجتهد وأخلاقه قويمة . وبعد ذلك بسبعة أعوام عندما كان فى الثالثة عشرة من عمره كتب قصيدة يصف فيها إحدى المواقع المشهورة بين الأميركيين والهنود الحمر . وكان على ثقة تامة بأنها جديرة بالنشر ، فاستجمع شجاعته ورماها فى صندوق إحدى الجرائد ، ولكن رئيس تحرير تلك الجريدة لم يوافقه على رأيه فكان نصيبها سلة المهملات . فما كان من الشاعر الصغير ، وقد جرحت كبرياؤه ، إلا أن أرسل القصيدة إلى جريدة منافسة فنشرتها . وقد قال بعد سنين عديدة بأن الشعور الذى استولى عليه عند ما رأى أول شعر له مطبوعاً لم يعاوده بعد ذلك لدى نشر أى شعر آخر

وكانت حياته المدرسية بعد ذلك نجاحا مضطرداً وتفوقاً يثير الاعجاب . وعند ما أتم علومه فى جامعة « بودوان » راح يلتمس من والده إرساله لقضاء سنة فى جامعة « هارفارد » واعترف له بما يجول بخاطره من آمال قائلاً : « الحقيقة يا والدى هى أننى أطمع فى مستقبل أدبى حافل . إن نفسى لتتحرق شوقاً الى ذلك » ولكن والده نصحه بأن يفكر فى صنعة تكفل له عيشه غير صنعة الأدب . وأرغم الشاب على النزول على إرادة والده والعمل بنصيحته ، فدخل كلية الحقوق . ولكن أحد المفتشين سمعه مرة يلقى ترجمة لمقطوعة من أصعب أشعار « هوراس » فأعجب به ، وعند ما كانت الادارة تفكر فى إدخال فرع جديد للغات الحديثة فى برنامج الجامعة وقع اختيار ولاة الأمر على « لونجفلو » ليكون أستاذاً لذلك الفرع ، ولما يتخط عامه التاسع عشر ، ولكنهم اشترطوا عليه أن يمضى ثلاث سنوات فى أوربا فيدرس لغاتها ثم يعود . ووافق والده على تزويده بالمال الكافى للقيام برحلته ، وأبحر الأستاذ الشاب الى أوربا بقلب مفعم حياة وأملاً ، فقضى ثلاث سنوات متنقلاً بين فرنسا وألمانيا وإيطاليا واسبانيا وانجلترا ، فدرس لغاتها وأحوال أهلها وطرق تفكيرهم ، ثم عاد ليقوم بأعباء منصبه بنشاط وحماس ، ويتقاضى تسعمائة دولار كل شهر (وهذا المبلغ كان يعد ثروة فى ذلك الحين)

لم يكن تدريسه فى جامعة « بودوان » وإدارة مكتبتها ليعوق « لونجفلو » عن الكتابة شعراً ونثراً ، فواصل جهوده فى النظم والتأليف ، ولكن كتاباته اقتصرت الى حد ما على الموضوعات التى كان يدرسها

وثبت اسم الشاعر فى عالم الشهرة حتى أن إدارة جامعة « هارفارد » طلبت اليه أن يتولى رياسة فرعها للغات الحديثة عند ما استقال أستاذها . فقرر « لونجفلو » القيام برحلة ثانية الى أوربا استزادة فى درس اللغات والآداب . وعندما كان فى هولندة

وصلته في امرأته فواصل أبحاثه ودروسه بقلب مثقل بالهم والحزن

وهنالك نادرة تحكى عنه عند ما عاد من أوروبا ليتولى عمله في «هارڤارد» ، وكان في الثلاثين من عمره ، ولكن هيئته لم تكن لتدل على ذلك ، فذهب الى « بنسيون » ليستأجر غرفة فيه ، فنظرت اليه صاحبة « البنسيون » من رأسه الى قدمه وقالت له : « أنا لا أقبل تلامذة عندي » ولكنه قال لها « لست تلميذاً » . أنا الأستاذ «لونجفلو» . فما كان من السيدة إلا أن قالت له وهي تفتح الباب على مصراعيه : « إذا كنت مؤلف « وراء البحار » فتفضل على الرحب والسعة » — « ووراء البحار » هو الكتاب الذي وضعه أثر رحلته الأولى الى أوروبا ، ووصف فيه تلك السلسلة من الأسفار في بلدانها — وقادته السيدة الى غرفة في الزاوية الشرقية في منزلها قائلة « كانت هذه غرفة الجنرال وشنجطن ويمكنك أن تنزل فيها . » وبقيت تلك الغرفة مسكنه طوال السبع عشرة سنة التي قضاها في « هارڤارد »

وفي سنة ١٨٤٢ قام برحلته الثالثة الى القارة الأوربية . وبعد ذلك بسنة تزوج مرة ثانية وقضى ثماني عشرة سنة في هدوء بين أطفاله وعائلته وأصحابه والقصائد التي كان ينظمها تترى

***

دُعي الكاتب الأمريكي المعروف « ناثانيال هوثورن » مرة الى الغداء على مائدة « لونجفلو » مع صديق للأول . ودار الحديث على الغداء حول قصة جرت وقائعها بين «نوڤاسكوتيا» — وهي شبه جزيرة ملحقة بكندا — والولايات الأمريكية الشرقية . فقال صديق «هوثورن» مخاطباً «لونجفلو» « أنا أجرب أن أقنع « هوثورن » بكتابة قصة عن الحادثة ، ولكنه لا يرى فيها فكرة لقصة »

فسأله « لونجفلو » أن يسرد على مسامعه تلك الحادثة علّه يجد فيها المواد لقصيدة أو أنشودة

ولخص له الصديق الحادث بقوله : « كانت مقاطعة « نوڤاسكوتيا » التي كان يسميها الفرنسيون « أكادي » تنتقل من أيدي الفرنسيين الى الانجليز ثم يسترجعها الفرنسيون ، وهكذا الى سنة ١٧١٣ ، إذ انتقلت الى الانجليز بموجب معاهدة « أوترخت » ، وهي باقية تحت سلطتهم الى يومنا هذا . وكان يغلب على سكانها الدم الفرنسي . فنشأت عداوة بين العنصرين الانجليزي والفرنسي ، أدّت الى منازعات ومناوشات دائمة .

وتفاقمت الحال في شبه الجزيرة حتى أصبح من الصعب جداً على الحكومة تهدئتها ، فاستنبطت حيلة لم تجد أنفع منها في تلك الأحوال ، وهي نقل «الأكاديين» الى جهات أخرى من أمريكا الشمالية حيث لا يتيسر لهم الأجتماع بالسكان الانجليز . وكانت الطريقة التي نقل بواسطتها أولئك المساكين غاية في الغلظة والفظاظة . طلب الحاكم الى جميع الرجال والفتيان الذين تزيد سنهم على العشر سنوات أن يجتمعوا في الكنيسة ، لأنه سيذيع عليهم أوامر هامة من السلطة . واجتمع الرجال والفتيان ، وهم يتساءلون عما أوجب حشدهم بتلك الطريقة ، وما أن دخلوا الكنيسة حتى حاصرتهم الجنود من الخارج ، وألقى الكاهن على مسامعهم الأمر الرهيب بصوت ملأه حنواً ورأفة . وفي مدة قصيرة كانت السفن حاضرة على الشواطىء ، فحشد فيها السكان بطريقة عسكرية قاسية كان من نتائجها أن تفرقت أسر كثيرة ، وأضاع أفرادها بعضهم بعضاً

وكان بين الذين نقلوا الى الولايات الشرقية فتى وصبية كان الكاهن قد عقد قرانهما في ذلك الصباح فقط . فأضاع أحدهما الآخر ، وبقيت « ايڤانجلين » تجوب السهول والقفار وتقطع الأنهار ، وتنام الليالي على الطوى كل حياتها باحثة عن « جابريال » الى أن انخرطت في سلك الممرضات ، بعد أن قطعت الأمل من وجوده ، وإذا بها يوماً تلتقي به بين المرضى ، فعرفته برغم التغير العظيم الذي طرأ عليه . وكانت صدمة عنيفة أودت بحياته لضعفه ، وأودت بحياتها هي لسرورها وحزنها المتعاقبين

وما انتهى الصديق من سرد قصته حتى التفت « لونجفلو » الى « هوثورن » قائلاً : « أتعدني بألا تكتب شيئاً عن هذه الحادثة حتى انتهي من نظم قصيدتي ؟ » ووعد « هوثورن » وبدأ « لونجفلو » في نظم القصيدة التي خلد فيها بطلي ذلك الحادث ، فخلداه بدورهما ، وجعلت « ايڤانجلين » اسمه يطبع بحروف كبيرة على صفحات الجرائد ، وتتوارد عليه رسائل الأعجاب تترى

ومن الغريب أن « لونجفلو » لم ير قط مشاهد قصيدته ، مع أن الوصف فيها كان مطابقاً للحقيقة كما شهد الذين سكنوا تلك الأمكنة

وقد اقتبست من قصة « ايڤانجلين » رواية سينمائية أخرجت في عهد السينما الصامتة ، وقامت بالدور الأول فيها الممثلة المكسيكية الفاتنة « دولوريس دلريو »

بيروت — مأمونة اياسي

العلوم

لمحة فى تاريخ الرياضيات

بقلم محمد المبارك
بكالوريوس فى العلوم

اجتازت العلوم الرياضية كغيرها من العلوم أدواراً ثلاثة : دوراً إلهياً théologique ، ودوراً تجريبياً عملياً ، ودوراً نظرياً مجرداً

فكانت فكرة القوة الميكانيكية فكرة إلهية تعزى الى الآلهة فى جميع حالاتها فى تلك الأزمان التى كانت تنسب فيها جميع الحوادث الى الآلهة المتعددة حينئذ بصورة مباشرة ، وكذلك كانت الأشكال الهندسية مقدسة ، وللأعداد خواص يعتقد بتأثيرها، ومع ذلك فقد أخذت الحقائق الرياضية تتولد تدريجاً بالحدس مستمدة من العمل والتجربة اللذين هما مصدران من مصادر الالهام ، وينبوعان يستقى منهما العقل البشرى أفكاره فى كل زمان . وعلى هذا النحو اكتشف كثير من النظريات والحقائق الرياضية ، كنظرية مساواة مربع الوتر لمربعى الضلعين القائمين فى المثلث القائم

وكثيراً ما أدت أغراض عملية الى حقائق نظرية كانت لها خطورة فى نشوء العلم وتطوره ؛ فعملية المساحة عند قدماء المصريين أدت الى اكتشاف كثير من الحقائق الرياضية . كما أن الفينيقيين اضطروا الى الحساب استعانة به على أمر تجارتهم ، وكذلك لجأ إليه الكلدانيون لمزاولتهم الفلك والتنجيم

على أن أكثر الأمور العملية كانت تشوبها أمور دينية ، فعملية المساحة عند المصريين كانت مهمة دينية يقام لها محفل يحضره الملك . ولا يخفى كذلك أن الفلك عند الكلدانيين لم يكن منفصلا عن التنجيم . فبسبب هذه العوامل اكتشفت بضع قواعد عملية ، لم تصل الى درجة يؤبه لها من اليقين العلمى ، وكثيراً ما كانت تقريبية غير مضبوطة ، عرفت بفضل التجربة — ولا أعنى بالتجربة فى كل ما تقدم القيام بعمل يقصد منه اكتشاف قضية علمية أو إثباتها كما يفهم منها اليوم ، بل أريد منها ما يصادفه الانسان من المشاهدات والملاحظات أثناء القيام بأعماله الحيوية — فكانت الهندسة فى تلك العصور الغابرة عبارة عن مجموع طرق لا رابطة بينها لحل المسائل العملية التى تستوجبها الحياة آنئذ ، كمعرفة كون كل مثلث تتناسب أضلاعه فيما بينها كتناسب الأعداد : ٣ ، ٤ ، ٥ قائم الزاوية . فبانشاء هذا المثلث يمكن الحصول على مستقيمين متعامدين . هذا وإن كثيرا من تلك القواعد تقريبى كما قلنا ليس له قيمة علمية ؛ مثال ذلك أن المصريين كانوا إذا أرادوا مسح[1] شكل رباعى ضربوا نصف مجموع ضلعين متقابلين منه فى نصف مجموع الآخرين ، مع أن هذا العمل لا يصح إلا فى المربع والمستطيل ، وكذا إذا أرادوا معرفة مساحة المثلث أخذوا نصف جداء[2] أكبر أضلاعه فى أصغرها

وأما البرهان على تلك القواعد العملية فلم يروا فى أنفسهم حاجة اليه ، واكتفوا بالمشاهدة الحسية ، ثم أخذوا بعد ذلك يبرهنون على المسائل ببراهين تجريبية تستند على الواقع ، لا على الحاكمة المنطقية ، أو على تمهيدات يقدمونها دون أن يبرهنوا عليها كأنها بديهية بنفسها ، وقد بقيت طريقة البرهان مدة طويلة على هذه الحال

وأما الحساب فأحرى أن يكون فى صبغة عملية بعيداً عن الصبغة العلمية ، إذ هو أكثر تجريداً من الهندسة ، ولذا لم يتم منه حينئذ إلا ما مست اليه الحاجة فى الحياة من القواعد البسيطة جداً التى تكاد لا تستحق أن يطلق عليها اسم قواعد إلا بالاضافة الى عصرها ، فكان المصريون إذا أرادوا ضرب عدد فى ثلاثة أضافوه الى ضعفه ، أو فى سبعة أضافوه الى ضعفه ، ثم

(١) مسح الأرض يمسحها مسحا ومساحة قاسها وتعرف مقدار سطحها
(٢) الجداء حاصل الضرب تقول ثلاثة فى ثلاثة جداؤها تسعة

ضعفوا الحاصل وأضافوا العدد اليه ، كما أن القسمة كانت بالطرح المتوالى ، فلم يكن لهذه العمليات قواعد نظرية

هذا مجمل حال الرياضيات فى العصور القديمة ، فلنبحث الآن بالتفصيل عما عرض لكل علم منها من الأطوار المتباينة من حين نشوئها حتى بلوغها تلك الدرجة العالية التى وصلت اليها فى العصور الحديثة ، ملاحظين فى هذا البحث تقسيم العلوم الرياضية الى ثلاثة أقسام .

(١) الرياضيات المشخصة ، وتشمل الهندسة والميكانيك

(٢) الرياضيات المجردة ، وهى على قسمين

(ا) ما يبحث فى الكم المنفصل ويشمل علم العدد والجبر

(ب) ما يبحث فى الكم المتصل ويشمل الهندسة التحليلية وحساب التوابع fonctions وحساب اللانهايات calcul infinitesimal

(٣) الرياضيات التطبيقية وتشمل المثلثات والهندسة الوصفية géometrie descriptive وحساب الاحتمالات

وسنقتصر فى بحثنا على أهم فروع الرياضيات تاركين البحث فيما هو فى الحقيقة ملحق بهذه الفروع المهمة ومشتق منها ، ومبتدئين بأقسام الرياضيات المشخصة ، إذ هى أقدم فى الظهور وأسرع فى التقدم

(١) الرياضيات المشخصة :

الهندسة : إن ما تركه اليونان من الآثار فى هذا العلم يدلنا على أنهم أول من صاغ الهندسة فى قالب علمى ، فقد أخذت طريقة البرهان فى عهدهم شكلاً عقلياً مجرداً . وربما كان فيثاغورس (٥٥٠ ق . م) أول من أقام البراهين العقلية وحررها من صبغتها العملية التجريبية القديمة . وإليه وإلى تلاميذه يرجع الفضل فى أكثر مسائل كتاب الأصول لأقليدس ، والنظرية المنسوبة إليه فى المثلث القائم مشهورة ، ولا يعلم على التحقيق كيف كان برهانه عليها . وأما أقليدس (٢٨٠ق.م) فقد حرر الهندسة ، ونظم نظرياتها ، وهذب براهينها . وكان كتابه إلى ما قبل عهد النهضة الأخيرة أجمع كتاب فى هذا العلم ، وقد رتبه على الطريقة الاستنتاجية . قال أبو نصر الفارابى فى « إحصاء العلوم » : « والنظر فيها — يعنى الهندسة — على طريقين : طريق التحليل وطريق التركيب ، والأقدمون من أهل هذا العلم كانوا يجمعون فى كتبهم بين الطريقين ، إلا أقليدس فانه نظم ما فى كتابه على طريق التركيب وحده » ويظهر أن أقليدس لم يكن مؤلفاً لكتاب الأصول ، وإنما كان محرراً ومهذباً . وعلى هذا القول الفيلسوف يعقوب الكندى والفيلسوف اليونانى دِيَدُوخس برقلس Proclus . وقد نقل هذا الكتاب إلى العربية جماعة كثيرون منهم أبو الوفاء محمد بن محمد البوزجانى وثابت بن قرة ، وحرّره أيضاً جماعة تصرفوا فيه إيجازاً وضبطاً وإيضاحاً وبسطاً ، والأشهر مما حرروه تحرير العلامة نصير الدين محمد بن محمد الطوسى المتوفى سنة ٦٧٢ هـ وهو أحسن تحرير له فى العربية[١] وهو مطبوع طبعاً لا بأس به ، يتألف من خمس عشرة مقالة ، ويحتوى على ٤٦٨ نظرية فى الهندسة المسطحة والمجسمة ، ونظريات الحساب مطبقة على الأشكال الهندسية ، كل ذلك مما لا يختلف كثيراً عما يقرأ فى المدارس الثانوية اليوم لا فى الكمية ولا فى الكيفية . وبلغ عدد من اشتغل فى هذا الكتاب من المسلمين من ناقل ومحرر وشارح ومختصر أكثر من خمسة وعشرين عالماً

وقد ألف المسلمون كثيراً فى الهندسة ، ونقلوا عن اليونانية كثيراً من كتبها ، وزادوا كثيراً من النظريات ، وبرهنوا على كثير من القضايا التى لم يبرهن عليها فى عهد اليونان . فقد ألف محمد بن الحسن بن الهيثم خمسة وعشرين كتاباً فى الرياضيات[٢] منها رسالة فى برهان الشكل الذى قدمه أرخميدس فى قسمة الزاوية ثلاثة أقسام ولم يبرهن عليه . وكتاب فى تحليل المسائل الهندسية وشرح لأصول أقليدس وغيرها مما هو مذكور فى كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (ج : ٢ ص : ٩٠)

وقد حفظت العربية بعض كتب اليونان الهندسية التى لم يبق إلا ترجمتها العربية مثل كتاب الكرات لمنالاوس Menelaus والخلاصة أن الهندسة وصلت فى عهد اليونان ثم فى عهد العرب إلى درجة من التجريد النظرى لا يستهان بها

الميكانيك : نشأ علم الميكانيك بالتدريج من الأمور العملية ، وقد درس أريسطو بعض مسائله ، ولكن بصورة عملية مغلوطة

(١) أنظر ترجمة الكتاب وذكر مترجميه وشراحه ومختصريه فى الجزء الأول من كشف الظنون ص ١٣٠

(٢) وألف فى الطبيعيات والألهيات أربعة وأربعين كتاباً بحسب ما قال هو عن نفسه فى حياته ، ونقل قوله صاحب كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، وعدد تلك المؤلفات ، وفيها ما يدل عنوانه على نفاسة موضوعه وخطورة شأنه لو أنه وجد بين أيدينا اليوم

أحياناً . وأرخميدس أول من أسس أركان الميكانيك النظرى ، ولـكنه كان يعد النظر فى الآلات التى يستعان بها على الحياة المادية صناعة خسيسة يترفع العلم عن البحث فيها . وكان العرب يسمون هذا العلم علم الحيل ، قال الفارابى فى تعريفه « إنه يبحث فى مطابقة جميع ما يبرهن وجوده فى التعاليم — أى العلوم الرياضية — على الأجسام الطبيعية »

ولم يصل هذا العلم عند اليونان والعرب إلى درجة تذكر ، فقد كان علما عملياً ، ولم يتم تأسيسه إلا فى العصور المتأخرة ، ويرجع الفضل فى تقدمه الأخير إلى سيمون ستيفن Simon Stévin وديكارت من علماء القرن السابع عشر ، فهما اللذان فكرا فى تمثيل القوة بشعاع هندسى ، ودراسة مبحث القوى بصورة هندسية مما أدى إلى تطور عظيم فى هذا العلم . ثم توسع بعد ذلك فى هذه الأبحاث لاجرانج Lagrange فى كتابه الميكانيك التحليلى سنة ١٧٨٧

ولم يكن تطور علم الميكانيك واحداً فى جميع أقسامه ، فقد درس أرخميدس توازن القوى ، وتأخر مبحث الحركة والقوى المسببة لها (dynamique) حتى درسه غليلو سنة ١٦٣٨ ، ومبحث الحركة مستقلة عن القوة cinématique حتى درسه أمبير Ampère سنة ١٨٣٤ ، ويلاحظ أن تطور هذا العلم كان متصاعد التعميم . فبحث توازن القوى أخص من مبحث الحركة والقوى ، كما أن هذا أخص من مبحث الحركة

(٣) الرياضيات المجردة :

علم العدد arithmologie : وهو أكثر العلوم الرياضية تجريداً ، ولذلك كان أبطأها ترقياً وتطوراً . ففكرة العدد التى هى أساس هذا العلم لم تستقر إلا بعد تطورات طويلة تقلبت فيها البشرية . فالانسان فى حالته الابتدائية لا يدرك منها سوى الوحدة والكثرة ، فهو يعلم الواحد والاثنين والكثير ، ولا يفرق بين العدد والمعدود ، ولربما اختلفت أسماء الأعداد باختلاف معدوداتها ، إذ ليس للعدد المجرد مفهوم عنده ، ولذلك يستعين بأصابعه وكثير من أعضائه أو بالحصى والأحجار فى التعداد ، ومن ثمة كان اعتبار العشرة والعشرين أساساً فى الترقيم بحسب أصابع اليدين أو أصابع اليدين والرجلين عند الأقوام الحفاة الأقدام

وكان اليونان يفرقون بين الحساب العملى والحساب النظرى ، ومع ذلك فقد كان علم الحساب عندهم يبحث عما للأعداد من الخواص الغريبة مما نقل منه كثير الى العربية ، ولا أعني بالخواص الغريبة هنا السحرية ولـكن العملية ، كمساواة كل عدد لنصف حاشيتيه ، أى العدد الذى قبله والعدد الذى بعده ، وكالخواص التى يذكرونها لهذه الأعداد (وهى سلسلة هندسية أساسها الأثنان ومبدؤها الواحد) : ١ ، ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٣٢ من أنك إذا جمعت الأعداد من الواحد الى أى عدد منها يكون الحاصل أنقص من العدد الذى انتهيت اليه بواحد ، فلو جمعت الواحد والأثنين والأربعة بلغت سبعة ، وهى أقل من الثمانية بواحد ، ويسمون كل عدد من هذه السلسلة (ما عدا الواحد طبعا) زوج الزوج ، وهو الذى اذا قسمته على اثنين بصورة متوالية تنتهى الى الواحد

وقد تأخر هذا العلم لأسباب ، منها فقدان أصول حسنة للتعداد عند اليونان ، فقد كانت طريقتهم فى كتابة الأعداد صعبة المسلك يتعسر بواسطتها إجراء العمليات الحسابية ، وهى الطريقة التى يستعملها الغربيون اليوم فى بعض المواضع ويسمون أرقامها الأرقام الرومانية chiffres romains وهى هذه I ، V ، X ، L ، C ، D ، M ، ويقابلها بالعربية : ١ ، ٥ ، ١٠ ، ٥٠ ، ١٠٠ ، ٥٠٠ ، ١٠٠٠

ومن أسباب تأخرهم أنهم كانوا يسلكون فى إثبات المسائل العددية طريقا هندسية ، وعلى هذا سار أقليدس فى أصوله ، فلم يفصل العدد عن المقادير الهندسية . ومنها أيضاً فقدان الأشارات والرموز فى العمليات الحسابية . والخطوة العظيمة التى خطاها هذا العلم هى أصول التعداد على أساس العشرة . ولذلك كان من أعظم مآثر المسلمين فى الرياضيات نقل الحساب الهندى والأرقام الهندية من الهند الى سائر نواحى العالم . وهم يسمونها أرقاماً هندية ، لأنهم نقلوها عن الهنود ، والغربيون يسمونها عربية لأنهم نقلوها عن العرب . وأول من أخذ تلك الأرقام عن الهنود واستعملها فى مؤلفاته محمد بن موسى الخوارزمى (فى القرن التاسع للميلاد)

قال الزوزنى فى كتابه تاريخ الحكماء(١) : « ومما وصل الينا من علومهم — يعنى الهند — حساب العدد الذى بسطه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى وهو أوجز حساب وأخصره ، وأقربه

---

(١) ص ٣٦٦ — ٣٦٧ طبع ليبسك وهو مختصر كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى

تناولاً وأسهلها مأخذاً ، يشهد للهند بذكاء الخواطر وحسن التوليد وبراعة الاختيار والاختراع » ومن اسمه اشتق الغربيون لفظة algorithme التي كانت تدل على الطريقة العشرية في الحساب ، وقد مزج الخوارزمي بين ما تمكن من الوصول اليه من أصول الحساب عند الهنود وأصول الحساب عند اليونان ، واستخرج من ذلك الحساب والجبر العربي ، وهو أول من ألف في الجبر ، وقد انتشرت مؤلفاته في أوربا في القرن الثاني عشر للميلاد حيث ترجمها الى اللاتينية Adelharp de Bath و Gerard de Erémone

الجبر : كثيراً ما يذكر بأن ديوفنطس Diophante (في القرن الثالث للميلاد) أول مشتغل بالجبر ، مع أن جل ما وصل اليه أنه كان يستعمل حروفاً في العمليات الحسابية يأخذها من الألفاظ الدالة على العملية المراد إجراؤها

واستعمال الحروف للدلالة على المقادير كان معروفاً منذ أرسطو ، وكان ديوفنطس يرمز للمجهول ولقواه حتى القوة السادسة ، ولمقلوب هذه المقادير وللوحدة بحروف مختزلة من أسمائها اليونانية ، ويتبع كل رمز بأمثاله العددية ، ففي ذات الحدود الكثيرة polynôme توضع الحدود الموجبة مرتبة بجانب والسالبة بجانب آخر يفصل بينهما بهذه الاشارة T الدالة على الطرح والتي هي مأخوذة من كلمة يونانية تدل على الطرح

فالمقدار الجبرى : $س^{٦} - ٦ س^{٥} + ١٥ س^{٤} - ٢٠ س^{٣}$
$+ ١٥ س^{٢} - ٦ س + ١$

يكتب هكذا : cc I qq XV ٩ X ٧uI T qcVI c XX N VI

فالحرف c الدال على التكعيب أعني القوة الثالثة مأخوذ من كلمة cupe والحرف q الدال على التربيع أعني القوة الثانية مأخوذ من كلمة quadratus والحرف u الدال على الوحدة مأخوذ من كلمة unum

وكذلك للمساواة والجذر رموز حرفية تدل عليها مأخوذة من ألفاظها اليونانية ، كما أن قواعد ضرب المقادير الجبرية ذات الحدود الكثيرة مع اعتبار الجهة ، أعني الموجب والسالب كانت معروفة لدى ديوفنطس

وأما العرب فلم يستعملوا الرموز الحرفية ، وإنما استعملوا كلمات بأجمعها دون اختصار ، وهم الذين وضعوا رمز الكسر فجعلوا صورته أو بسطه في الأعلى ومخرجه أو مقامه في الأسفل يفصل بينهما خط أفقي ، على حين أن ديو فنطس كان يجعلها على عكس هذا الوضع ، والبيزنطيون يضعون المخرج فوق الصورة كما نضع نحن الآن القوة أو الأس فوق العدد

والعرب يرمزون للمجهول بكلمة شيء . قال بهاء الدين العاملي في كتابه خلاصة الحساب « يسمى المجهول شيئاً ومضروبه في نفسه مالا ، وفيه كعباً ، وفيه مال المال ، وفيه مال الكعب ، وفيه كعب الكعب إلى غير النهاية » ويسمون مقلوب هذه المقادير جزء الشيء وجزء المال وجزء الكعب وهكذا . ولنضع بجانب كل منها مصطلحه الحالي :

شيء	: $س$	، جزء الشيء	: $\frac{١}{س}$
مال	: $س^{٢}$	، جزء المال	: $\frac{١}{س^{٢}}$
كعب	: $س^{٣}$	، جزء الكعب	: $\frac{١}{س^{٣}}$
مال المال	: $س^{٤}$	، جزء مال المال	: $\frac{١}{س^{٤}}$
مال الكعب	: $س^{٥}$	، جزء مال الكعب	: $\frac{١}{س^{٥}}$
كعب الكعب	: $س^{٦}$	، جزء كعب الكعب	: $\frac{١}{س^{٦}}$

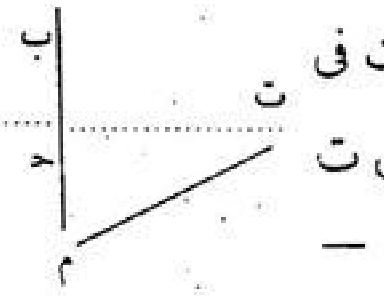
فيقال مثلاً للرمز $س^{١١}$ مال كعب كعب الكعب ولمقلوبه جزء مال كعب كعب الكعب ، وكذلك كانوا يعلمون قاعدة ضرب هذه القوى أو هذه الأجناس كما كانوا يسمونها بعضها ببعض ، وقسمتها مع اعتبار الجهة ، فيجمعون الأسس أو يطرحونها . وقد ذكر العاملي في كتابه المذكور قواعد ضربها ثم قال : « وان كان — يعني في أحد المضروبين — استثناء ، يسمى المستثنى منه زائداً والمستثنى ناقصاً وضرب الزائد في مثله والناقص في مثله زائداً والمختلفين ناقص ، فمضروب عشرة وشيء في عشرة إلا شيء مائة إلا مالا »

وفي اصطلاحنا : $(١٠ + س)(١٠ - س) = ١٠٠ - س^{٢}$

وبعد أن أورد أمثلة عديدة على الضرب قال : « تفرض المجهول شيئاً وتعمل ماتضمنه السؤال إلى أن تنتهي إلى المعادلة ، فالطرف ذو الاستثناء يكمل ويزاد مثل ذلك على الطرف الآخر وهو الجبر ، والأجناس المتجانسة المتساوية في الطرفين تسقط ، وهو المقابلة » ثم قسم المعادلات إلى ستة أنواع وبين كل واحدة وطريقة حلها وأتبع ذلك بمسائل منها هذه : « رمح مركوز في

حوض ، والخارج عن الماء منه خمسة أذرع مال مع ثبات طرفه حتى لاقى رأسُه سطحَ المكان ، فكان البعد بين مطلعه من الماء وموضع ملاقاة رأسه له عشرة أذرع فكم طول الرمح ؟ — أقول توضيحاً لكلامه : الرمح هو (م ب) والخارج عن الماء منه هو

ب حـ = ٥ أذرع ، أثبت فى م وأدير حتى صار رأسه ب فى ت والطول حـ ت = ١٠ أذرع —



تفرض الغائب فى الماء شيئاً ، فالرمح خمسة وشيء ، ولا ريب أنه بعد الميل وتر قائمة أحد ضلعيها عشرة أذرع ، والآخر قدر الغائب منه ، أعني الشيء ، فمربع الرمح أعني خمسة وعشرين ومالا وعشرة أشياء ، مساوٍ لمربعي العشرة والشيء أعني مائة ومالا . وبعد إسقاط المشترك يبقى عشرة أشياء معادلة لخمسة وسبعين والخارج من القسمة سبعة ونصف ، فالرمح اثنا عشر ذراعاً ونصف ذراع »

وعلى حسب اصطلاحنا تجرى المعادلة هكذا

$$(٥ + س)^{٢} = ١٠^{٢} + س^{٢}$$

$$٢٥ + س^{٢} + ١٠ س = ١٠٠ + س^{٢}$$

$$١٠ س = ٧٥$$

$$س = ٧,٥$$

والذى توصلوا إليه فى الجبر هو حل المعادلات من الدرجة الثانية ، وقد ذكر الأمير شكيب أرسلان فى حاضر العالم الاسلامى أن عمر بن ابراهيم بسط حل المعادلات من الدرجة الثالثة ، ولم نر ذلك فيما بين أيدينا من كتب المتقدمين كالياسمينية وخلاصة الحساب وشروحها ، ولا ندرى من عمر بن ابراهيم هذا هل هو الخيّام الفيلسوف الفارسى المشهور أم غيره ؟ وعلى كل فعسى أن يقيض الله لهذا السر من يكشفه

هذه نبذة يسيرة من الجبر العربى يتضح منها أن هذا العلم وصل فى عصور المدنية الاسلامية إلى شيء كثير من التجريد برغم فقدان الاشارات والرموز واستعمال الألفاظ الدالة على المجهولات دون اختزالها

ولما انتقل الجبر الى أوروبا بواسطة المسلمين عم استعمال الحروف بطبيعة الأمر وبتأثير بعض العلماء كفرنسوافيت Viéte (١٥٤٠ — ١٦٠٣) وديكارت

أما الأشارات التى نستعملها اليوم فهى متأخرة الظهور ، فاشارة الناقص (—) ترجع الى القرن الثالث عشر ، ولا يعلم أصلها ومصدرها ، واشارة الزائد (+) ترجع الى القرن الرابع عشر ، إذ شاع استعمالها فى المانيا ، على حين أن علماء إيطاليا ظلوا مدة يستعملون للزائد والناقص حرفى m , p من كلمتى moins, plus

وأما اشارة المساواة = فهى من اقتراح العالم الانكليزى Recorde سنة ١٥٥٦ ، وقد اتخذها نيوتن ووواليس ، فعم استعمالها فى انكلترا ، على حين أن ديكارت فى فرنسا كان يستعمل هذه الاشارة ∞ وكثير غيره كانوا يستعملون لذلك خطين رأسيين متوازيين هكذا : ||

الأس أو قوة الرفع : أول من أشاع استعمالها على الشكل المعروف الآن ديكارت ، ولكن منشأها يرجع الى عهد أقدم من ذلك ، وكان علماء هولندا يكتبون الأس فى دائرة صغيرة فوق العدد المرفوع

وأما اشارة الجذر الدالة على درجة الجذر فهى متأخرة أيضاً ، فقد كان ديكارت نفسه يستعمل للجذر التربيعى هذه الأشارة : √ وللتكعيبى هذه : $\sqrt{}_{c}$ بحرف c يدل على التكميب الذى هو درجة الجذر من كلمة cube ومن المستبعد أن تكون هذه الاشارة كما يزعم البعض جيما عربية مقلوبة ج اختزالاً لكلمة جذر ، فليس لهذا القول من مؤيد تاريخى ، وها هى الكتب العربية القديمة فى الرياضيات الموجودة الآن خلو منها

الأقواس : هى كذلك متأخرة الظهور ، فى النصف الأول من القرن السابع عشر كانوا يضعون خطاً أفقياً فوق الحدود التى يراد إجراء عمليـــة واحدة عليها ، ولا يزال هذا الاستعمال فى المجذورات $\sqrt{\quad}$

وأما الاشـارات الثانوية كاشارة الضرب والقسمة فلم يتم وضعها كذلك إلا بعد ظهور الجبر الحديث

ويرجع الفضل فى ظهور الجبر الحديث الى فرانسوا فييت ، فهو أول من أجرى العمليات الجبرية مع استعمال الحروف والاشارات ، وقد أراد أن يستبدل كلمة جبر « البربرية » كما يقول بكلمة تحليل analyse ولكن هذه التسمية الجديدة لم تلق نجاحاً ، وإنما بقيت كلمة تحليل منصرفة الى فروع أخرى من الرياضيات

وجملة القول أن ترقى الطريقة الرمزية فى الرياضيات وذيوع

الاشارات والرموز أدى الى ترق عظيم فى العلوم الرياضية ، بل الى ظهور فروع جديدة كالهندسة التحليلية .

الهندسة التحليلية وحساب التوابع

إن علم الجبر أدى تدريجاً باستعمال الحروف للدلالة على المقادير الى فكرة التابع fonction وقد كان اليونان كما تقدم يعبرون عن القيم العددية بأطوال هندسية ، وبذلك تمكنوا من حل بعض المسائل الجبرية هندسياً ، وهم وإن كانوا لم يتوصلوا الى المفهوم العام للاحداثيات coordonnées فدراستهم للقطوع المخروطية الناقص والزائد والمكافىء شبيهة جداً بالهندسة التحليلية ، فقد كانوا بعد تعريف هذه القطوع ينسبون نقاطه الى قطر أو محور ، ويحصلون على علاقة بين الفاصلة abcisse والترتيب ordonnée وعلى كل فانهم درسوا خواص بعض المنحنيات بقصد حل المسائل ، ولفقدان مفهوم الموجب والسالب للكميات لم يتمكنوا من التوسع فى ذلك

وهذه الفكرة أعني فكرة التابع إنما وجدت واضحة للمرة الأولى فى كتابات نيقولا اورسم Nicolas Oresme فى القرن الرابع ، إلا أنه اقتصر على الكميات الموجبة . وقد كان لفرانسوا فييت أثر بيّن فى رقى الهندسة التحليلية التى ظهرت ظهورها الرائع أخيراً على يد ديكارت سنة ١٦٣٧ ، ومع هذا فقد احتوت هندسة ديكارت على مسائل تقريبية أو غير مضبوطة

(٣) وأما الرياضيات التطبيقية فهى متفرعة عما تقدم ذكره من أقسام الرياضيات ومتأخرة فى النشوء والظهور ، إذ أنها كانت مبعثرة مندمجة فى العلوم التى كانت منبعها الأصلى ، ولم تنسلخ عنها وتظهر بالصورة التى هى عليها الآن إلا فى العصرين الأخيرين ، هذا اذا استثنينا المثلثات trigonometrie التى اتسعت بقسميها المستوية والكروية منذ عهد قديم لشدة الحاجة اليها فى الحسابات الفلكية . وللعلامة نصير الدين الطوسى كتاب فى المثلثات الكروية اسمه شكل القطاع[١] وقد اشتغل فى هذا العلم غيره من المتقدمين كأبى ريحان البيرونى وأبى الوفاء محمد البوزجانى وأبى جعفر الخازن وأبى فضل الله التبريزى ، فقد ألفوا فيه كثيراً ووضعوا نظريات جمة هى من أهم نظريات هذا العلم . ومما هو جدير بالذكر فى تاريخ المثلثات أن أبا ريحان البيرونى هو أول من اعتبر نصف قطر الدائرة واحداً قياسياً فى أبحاث المثلثات[١]

هذه صورة مجملة عن تاريخ العلوم الرياضية يتبين لنا منها أن المدنية الاسلامية حلقة هامة من حلقات هذا التاريخ وركن أساسى عظيم فى هذا البناء ، فالمسلمون هم الذين وضعوا علم الجبر وحفظوا تراث اليونان ، وهم الذين نقلوا عن الهنود الأرقام ونظام كتابتها المعروف اليوم ، وتعهدوا كل ذلك بالعناية شرحاً وتهذيباً وتنقيحاً وتوسيعاً ، وأحدثوا كثيراً من الأوضاع ، وتوسعوا فى كثير من الأبحاث ، ووضعوا كثيرا من النظريات ، فكان لقريحتهم الفياضة أثر بيّن لا يزال العلم يحفظه لهم ، ومآثر خالدة لا تنى المدنية العلمية عن الأشادة بها ، وبالجملة فليس من شك فى أن ما خلدوه من الآثار فى هذه العلوم كان تمهيداً مباشراً لما حدث فيها من التقدم والرقى فى العصور الحديثة

محمد المبارك

دمشق — بكالوريوس فى العلوم

(١) مطبوع مع ترجمة فرنسية له فى القسطنطينية ١٣٠٩ هـ

(١) شكل القطاع ص : ١٢٧

البريد الأدبي

اليابان سنة ١٩٣٤

تثير نهضة اليابان العسكرية والاقتصادية في الأمم الغربية أعظم اهتمام وجزع ، ذلك لأنها تسير بخطى الجبارة ، ولا تقف عند حد ، وتحمل في طريقها كل شيء . كانت اليابان قبل خمسين عاماً فقط محصورة في جزائرها لا يزيد سكانها على ثلاثين مليوناً ؛ أما اليوم فهي امبراطورية عظيمة ، تسيطر على كوريا ومنشوريا وقسم من منغوليا ، ويبلغ سكانها وسكان الأراضي التي تسيطر عليها نحو مائة وعشرين مليوناً

وقد أصدر الكاتب الفرنسي موريس لاشان عن اليابان ونهضتها تحقيقاً جامعاً في كتاب عنوانه « اليابان سنة ١٩٣٤ » وفيه يلقي الضياء على بعض الحقائق المدهشة ؛ فان اليابان مثلاً مازالت تجمع بين روحها وتقاليدها القديمة وبين روح الدولة الحديث ؛ ومازالت صور الأقطاع والعبودية القديمة تثقل كاهل الشعب ؛ والشعب ترغمه التقاليد والتراث الروحي القديم وحب الامبراطور على الخضوع وللطاعة ، وهو يضطرم بنوع من الاشتراكية الوطنية . ويلاحظ الكاتب أيضاً أن قوى الشعب الياباني كلها ، والامبراطور ، والجيش والبحرية ، وأقطاب العهد القديم من جهة وقوى الرأسمالية ، وكل الجموع البائسة التي يغص بها المعمل من جهة أخرى ، كلها تعمل في نفس الاتجاه وبنفس الروح ، ولنفس الغاية ، وهي افتتاح أسواق الصين ، والسيطرة على المحيط الهادي ، بل هي في الواقع غزو العالم كله ؛ وقد غزت اليابان بالفعل جزائر الهند الشرقية ، وأخذت تهدد قاعدة سنغافورة ، واستراليا ، ووصلت تجارتها الى شواطئ المحيط الهندي ، ونفذت الى بلاد الحبشة ، وجازت مضيق عدن وقناة السويس ، وانتشرت على شواطئ البحر الأبيض المتوسط

ويتوقع المسيو لاشان أن النزاع قد يضطرم عما قريب بين اليابان وأمريكا ؛ ولكن يجب لاضطرامه أن يقع حادث ما ؛ ومثل هذا الحادث قد يكون أول انتصار اليابان على الصين ، أو انتصارها على الروسيا ، أو تنازعها مع الصين والروسيا على تحقيق الامبراطورية الكبرى التي تسعى اليابان الى تحقيقها باسم الشعوب الصفراء ، ذلك أن شعوب الصين المختلفة قد ترغم غداً على أن ترى في اليابان ما رأته الأمم الجرمانية من قبل في بروسيا ، أعني زعيماً ومعلماً وقائداً

ذكرى العلامة الطبيعي بريم

تحتفل الهيئات العلمية الألمانية بالذكرى الخمسينية لوفاة العلامة الطبيعي الألماني الفرد أدموند بريم ، وقد ولد بريم في تيرنجن في فبراير سنة ١٨٢٩ ، وكان أبوه قساً يعنى بتربية الطيور ودرس خواصها ، فنشأ ولده بريم شغوفاً بهذه الناحية من الدرس ، وفي سن الثانية عشرة سافر الى أفريقية مع البارون فون ميلر في رحلة علمية دراسية ، ومر بالقاهرة يومئذ (سنة ١٨٤٧) فصادف بها الزلزال الشهير الذي وقع فيها عندئذ وكاد يهلك ؛ ثم سافرت البعثة الى النوبة والسودان ، واصطادت كثيراً من الحيوانات المختلفة ؛ وعكف بريم على دراسة خواصها المادية والروحية ، وفي أثناء عوده الى القاهرة كانت بعثة « لبوبة » الشهيرة « بجيته » فكان يطوف بها الشوارع ذلولا مطيعة ، ثم عاد بريم من القاهرة بعد عامين الى السفر مرة أخرى مع أخيه وزميل آخر ، واعتزموا اختراق السودان حتى منابع النيل ، ولكن البعثة كانت غير موفقة ، إذ غرق أخوه في النيل ، ونفدت موارد البعثة ، وعندئذ أمده حاكم السودان لطيف باشا بشيء من المال ليتابع رحلته على ضفاف النيل الأزرق ، وهناك اصطاد كثيراً من الحيوانات وأنفق نحو خمسة أعوام في هذه الرحلة ، واكتشف فيها كثيراً من الحقائق العلمية ؛ ثم عاد الى ألمانيا ، وانكب على دراسة العلوم الطبيعية ؛ ونال إجازة الدكتوراه من جامعة بينا في علم الحيوان سنة ١٨٥٦ وانتخب عضواً في الأكاديمية البروسية الملكية ، وأخذ منذ ذلك

الحين يكتب عن حياة الحيوان ؛ ثم قام برحلة فى أسبانيا ، وأخرى فى لابلاندا وجزائر لوفوتن ؛ ثم قام برحلة أخرى فى شمال الحبشة فى سنة ١٨٦٢ ، وكتب كتباً عن هذه الرحلات والمباحث كلها . ولما عاد الى المانيا كتب مع زميلين له كتاباً مصوراً عن حياة الحيوان فى ستة مجلدات اختص منها هو بأربعة ؛ وعين مديراً لحديقة الحيوانات فى برلين وهمبورج مدى حين . ولكن شغف البحث حمله مرة أخرى ، فسافر الى سيبيريا الشرقية ، وكاد يهلك فى هذه المرة ، وسافر الى أمريكا الشمالية سنة ١٨٨٣ ، ولما عاد الى المانيا لم يمكث طويلا حتى توفى فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٨٤

وكتاب بريم عن حياة الحيوان من أشهر الآثار وأقيمها فى هذا الموضوع ، وهو يعتبر أستاذ موضوعه فى العلم الألمانى ؛ ولم يسبقه ، بل ولم يأت من بعده أحد استطاع مثله أن ينفذ إلى روح الحيوان وإدراكه ، وقد ترجم أثره إلى جميع اللغات

عيد الأكاديمية الفرنسية

مضى اليوم على تأسيس الأكاديمية الفرنسية ثلاثمائة عام كاملة ؛ ذلك لأنها أنشئت فى عهد لويس الثالث عشر ، فى أوائل سنة ١٦٣٥ ؛ أسسها جماعة من النبلاء الأدباء برعاية الكردينال ريشيليو الحبر السياسى وزير لويس الثالث عشر ، فكانت من خالد آثاره ، وسيجرى الاحتفال بهذه الذكرى بمنتهى البساطة ، ويقام لذلك معرض فى المكتبة الوطنية فى شهر يونيه القادم ؛ وستعرض فيه طائفة من الوثائق الخطية الشهيرة الخاصة بالأكادمية ، ومنها مسودة الخطبة الأولى التى أعدها السيد بول هاى صاحب الشاتليه لالقائها فى أول جلسة للجماعة العلمية فى ٥ فبراير سنة ١٦٣٥

وقد تساءلت إحدى الصحف الأدبية الكبرى بهذه المناسبة عما اذا كان المسيو رنيه دوميك سكرتير الأكادمية يقبل أن يضم هذا المعرض التذكارى بعض الصور الرمزية المضحكة التى أوحى بها تقاعد الأكادمية عند اصدار «قاموسها» الشهير ، وما وقعت فيه من الأغلاط النحوية ، ومنها اللوحة الشهيرة التى رسمها « فيرتبير » ، وعنوانها « دفن قاموس الأكادمية » ؟

البترول من ماء البحر

كتب المهندس الفرنسى مسيو ساهير إلى الحكومة الفرنسية ينبئها بأنه وصل إلى طريقة لاستخراج البترول من ماء البحر العادى ، وأنه على استعداد لأن يبيعها سر هذه الطريقة نظير ٢٥ مايوناً من الجنيهات

وقد قالت جريدة « الماتان » فى تعليقها على هذا النبأ إن المهندس ساهير واثق كل الثقة من طريقته ، وأنه دعا إلى معمله بمدينة « روين » بعض الخبراء فى وزارة الحربية والطيران ليشهدوا التجربة

وقال مسيو ساهير فى حديث له مع مندوب « الماتان » إنه لاحظ أن المناطق الغنية بالبترول توجد بها عدة كميات كبيرة من الماء الملح . وأن هذه الملاحظة هى أساس الفكرة التى أوصلته إلى استخراج البترول من ماء البحر ، لأنها دلته على أن الماء الملح لابد أن يكون من العناصر الأساسية

الأدب وسيلة للتفاهم الدولى

أذاعت إحدى دور النشر الكبرى فى برلين أنها تخصص جائزة قدرها عشرون الف مارك (نحو ١٥٠٠ جنيه) لمن يضع أحسن كتاب قصصى عن مسألة التفاهم بين فرنسا وألمانيا . والمفهوم أن إنشاء هذه الجائزة كان بايعاز من وزارة الدعوة ؛ وقد وافق وزير الدعوة الهير جيبلز على أن يكون الهر هانز بلونك رئيس الجمعية الاشتراكية الوطنية (الهتلرية) للكتاب الألمان هو الحكم الوحيد فى فحص الكتب المقدمة وتخصيص الجائزة . وقد علقت الصحف الفرنسية على هذا النبأ بأنه من بعض أساليب الدعوة الهتلرية التى يراد بها إخفاء نياتها الحقيقية نحو الاستعداد للحرب

القصص

عمامة الأفندى

للأستاذ محمد سعيد العريان

طال بنا انتظار صاحبنا (المأذون) فى هذه الليلة حتى دقت العاشرة ولم يجىء ، وكنا نرقب مَقْدمه علينا كلَّ مساء رِقْبة المشتاق ، فما تخلّف منذ عرفناه ليلة ، وإنه ليقدم فيحلّ البشرُ ويستخفّنا السرور ، سرورُ النفس بدعابته ، وسرور المعدة بحَلْواه ؛ فقلما كان يوافينا إلا ومعه هدية من عُرس نتوزّعها بيننا . ولم يكن لمقدمه ميعاد ، فانه لَعلى تجوال دائم ، يتأبّط دفتره من دار الى دار ، رسولَ سلام وحب ، أو رسول فرقة وقطيعة !

وتوزّعتنا الظنون من غيبته ، وحسبناه قد أصاب الليلة حظاً من عرس ، فبخل علينا بحلواه ومرق الى الدار ؛ فما كنا لنتركه حين يقدم علينا إلا فارغَ الجيب من الحلوى وغير الحلوى مما يجمع من الأعراس ، وما كان ليتركنا إلا فارغة رءوسنا من كثرة ما نضحك من دعابته وهزله . وإنه لشاب ضُحَكَة(١) جرىء على النكتة ؛ ليس فيه زمانةُ الشيوخ من أهل هذه الطائفة

وتهيأنا لاستقباله بفيض من النكات المصنوعة ، لعلنا ننال منه لقاءَ ما كان يُشبعنا كل مساء من عبث ودعابة ؛ فقد كان له فى كل ليلة هدف من الجلساء يتندّر عليه ويتخذه ضُحْكَة(٢) فما ينصرف عنه إلا مُغْضَباً ليترضّاه فى غد !

وجاء بعد قليل ، فحيّا وجلس ، ولكنه كان عابساً مهموماً ما يكاد جفنه يطرف ؛ فحسبنا من وراء مظهره العابس نكتة مبتكرة ، فما عهدناه يألم فى الحياة لشىء ، وإن الهموم لتصطرع عن يمينه وشماله

وهممنا به نتناوله بما أعددنا له من عبث ، فاذا كلماتنا تتساقط حواليه ولا تصيبه ، وظلّ على حاله من الغضب والعبوس وسرّت الينا نفسُه ، وتقمّصتنا مما به روح الكآبة والوحشة ؛ فأمسكنا عن الحديث لحظات

ورفع الشيخ رأسه بعد هنيهة ، وتحركت شفتاه بكلام ، فتقصّفْنا عليه نستمع لما يقول

وسأل : « ما لديكم من أنباء صاحبنا عاطف ؟ »

قلنا : « لقد انقطع عن نادينا من زمان بعيد ، فلعله على شُغُل ببعض شأنه ؛ وإن لذّاتِ الحياة لحبيبةٌ اليه ، فما نراه قد منعه لقاءَنا إلا لهوٌ آثره علينا ، أو لذةٌ دعته فلبّاها ؛ أو لعله يتفيّأ من دنياه الجديدة ظلالَ الحب والسعادة »

قال : « بل دنياه الجديدة ، ولكن ليس فيها من السعادة والحب ولا ظلّهما ؛ ولكنْ مكابدةُ الأحزان ، وألم الوحدة ، ومشقة الحرمان ، وظلام اليأس ! »

ورنّت كلماته فى أذنى رنيناً مفزعاً سمعت صداه فى قلبى ؛ فقد توثّقت صلتى بعاطف صبيّاً وغلاماً وشاباً ؛ فأىُّ أمل كان يجيش فى تلك النفس ، وأىّ روح كان يحمل ذلك الجسد ، وأىّ حيوية كانت تصطرع من ذلك الشباب !

فما كربنى كربٌ ونظرته إلا عادت الحياة فى عينىّ باسمة نضرة ، وما أهمّنى همٌّ فلقيتُه إلا تعلمت منه فلسفة الرضى بما هو كائن ، وكان من بهائه وإشراق طلعته ، الى كماله وعفّته — كأنه فتنةٌ مستحيية . . .

وأخذ الشيخ يقصّ علينا من نبئه ، ونحن نستمع اليه فى صمت

* * *

كان عاطف على ما انبسط له من النعمة ، وما اتفق له من حسن الرأى — لا يؤمل فى الزواج إلا من فتاة ذاتِ مال . ولقد كان عجيباً عندنا أن يكون على هذا الرأى ، وهو مَن نعرف من شباب الجيل الجديد ؛ ولكننا لم نكن لنستطيع على ما نسرف فى مهاجمة رأيه — أن نصرفه عن بعض ما كان يعتقد . وراح فى سبيل غايته يبحث عن الزوجة الغنية على أبواب المجلس الحسبى . . . !

(١) الضحكة (بضم ففتح) الكثير الضحك (٢) والضحكة (بضم فسكون) الذى نضحك منه

ووجدها بعد إذ جَدَّ فأعيا ؛ ولم تكن جميلة ، ولكنها كانت بعيدة من الدمامة ؛ وكانت جاهلة ، ولكنها من بنات الحاضرة . وقد مات أبواها وخلّفا لها قصراً وضيعة ، وأخاً يقوم عليها وعلى الضيعة جميعاً

واستوثق الفتى من غنى صاحبته ، فأقبل يخطبها الى أخيها وقد اجتمعت له الأسباب . وأدّى المهر ؛ مهرَ الضيعة والقصر والعروس . . . وعُقد له على فتاته

لقد غبطناه يومئذ على النعمة ، نعمةِ الثروة والجاه والزواج ، وما عَنَانا كم دفع وكم أنفق ؛ فقد كنا على ثقة بأن حبّته مردودة اليه سبعَ سنابل فى كل سنبلة مائةُ حبة . ورحنا نتهم أنفسنا بفساد النظر وأفَن الرأى وسوء التدبير

ومضى أسبوع ، وشهر ، وأشهر ، وأوشك العام أن ينتصف . وعاطف متهلّل الوجه ، ضاحك السنّ ، يحلم بالغد القريب يوم تُزَفّ زوجته اليه ، وتُزف ثروتها الى خزانته . . . وسعى الى صهره يستعجله ، فاذا هو يبسط له المَدَى ، ويفسح الأجل ، ويستشفع بالتقاليد . . .

وعاد الفتى إلى نفسه يطمئنها ويترضّاها . وما عليه من ذاك ؟ أليست ستُزَفّ اليه لامحالة فى يوم قريب أو بعيد ؟ بلى ؛ وإنها لزوجته ، مافى ذلك شك ولا إنكار ؛ فلا عليه أن ينتظر !

ودار دولاب الزمن فأتمّ دورة ، وراح الفتى يستنجز صهره الوعد ، فقابله وهو يبتسم ، وبسط له وجهَه ومجلسه ، وأخذ يتنقّل به فى الحديث من فنّ الى فنّ حتى زالت وحشته ، وأنسَتْ روحه ؛ فودّعه ولم يظفر بجواب . . . !

وتولّت الأيام بعضُها فى أعقاب بعض ، وتصرّمت الأشهر شهراً فى أذيال شهر ؛ ومازال صاحبنا يراوح بين جنبيه فى فراش الوحدة ، وعروسه هناك من دونها الأبواب والحارس العتيد !

وملّ الفتى مُقامَه ، وضاقت به نفسه ؛ فراح يطلب التعجيل فى الزفاف فيُلحف ، وأخو الفتاة فى هدوء المطمئن يُبعد له الأجل ويعتذر بالظروف !

— « أىّ ظروف ؟ لقد مرّ عامان مذ تزوّجْت ، فمن لى على الحياة أحتمل بردَها وحرُورَها وحدى ، وما أنا عَزَبٌ فأنطلقَ حيث أشاء ، ولا زوجٌ فآوىَ إلى بيتى ألتمس هدوء النفس وبرد الراحة ! »

وعاد الأخ يعتذر ويجدّد الميعاد ، وهو يربت على كتف الزوج الغاضب

وخرج عاطف من الدار والقِدْرُ تغلى فى رأسه ؛ لقد ابتدأ يعرف ما هنالك ، ولكنه لم يجرؤ على التصريح . أيكون ذلك من قوانين البر ، أهو كذلك ناموس الرحمة والعدل ؛ أيعضل الأخ أخته فيحرمها الاستمتاع بالحياة من أجل المال ، من أجل مالها الذى يخشى أن يفلت من يده إلى الزوج يتصرف فيه كيف يشاء ! وما يضيره من ذلك وإن له لَضِعْفَ ما تملك أخته المسكينة ، وإن ماله ليكفيه ويفضل عن حاجته ، ولكن . . . ولكن أين هو الفضل منذ سنوات ؟

لكأنما هو مستخدم على أن يجمع المال فيبدده هنا وهناك ، وما له من ذلك إلا اللقمة ، وما تمتاز كثيراً من لقمة الفقير ؛ وإلا الثوب ، وإنك لترى الثياب الغالية يُزْهى بها من هم دونه من عامة الناس ؛ أما فضل المال فله مصرف من وراء ذلك : على المرأة والكأس والقمار . . .

وهمّ عاطف أن يعود فيصرخ فى وجهه بما عرف من أمره وسوء تدبيره ، ولكنه كظم الغيظ على ألم وضيق

وتلاقيا بعد أيام ، وكانت القدر ما تزال تغلى ؛ فملا الزَّبَد يترشش مُفصِحاً عن غضب مغيظ . . . وافترق الرجلان على خصومة وعِداء . . . !

***

ودق عاطف باب المحكمة لعلها أن تحمل زوجته على (الطاعة)

أين هى المسكينة ؟ وعلى طاعة هى أم على عصيان ؟ إنه لم يرها إلا مرسومة فى ورقة ، أتراها فى الأحياء ، أم هى من وراء جدران سجنها جثّةٌ بلا روح ، وجسد بلا عاطفة ، وطاعة بلا ارادة ، ومعِدَة بلا وجدان . . . !

ويحكِ أيتها المسكينة ! أتشعرين أنك فى الأحياء ؟ لعل فى الموتى من هم أقرب منكِ إلى الحياة ، لأنهم يعيشون من عواطف أهليهم فى عواطف حية وحب مشبوب . . . !

وفى المحكمة رأى الفتى عروسه لأول ما رآها ، وقد جاءت تسعى عن أمر أخيها تطالب زوجها بالنفقة والكسوة والمأوى ! يا للسخرية ! أضاق بها أخوها طاعمة كاسية من مالها عنده ! فيدفعها الى القضاء تلتمس القوت واللباس . . . !

وكان بينهما ما يكون دائماً بين كل زوجين يعرفان المحكمة الشرعية ؛ فى كل يوم بينهما (جلسة) للقضاء ، وكلٌّ منهما يفتنّ فى الكيد والاغاظة ، والغالب منهما من ينال من صاحبه من غير عائدة عليه ، والمال يتسرب من بين أيديهما للمحامى

والـكاتب ورسوم الدعاوى وأجر الشهود ... !

وامتدّت بينهما الفتنة ، ولجّت بهما الخصومة ، وطالت إجراءات التقاضى ، وتصرمت سنوات . وأخذ الزوج المسكين يبيع ما يملك قطعةً بعد قطعة ، وفاء لنفقة الزوجة ونفقة القضاء ؛ وأوشك الزوج الذى راح يطلب الغنى من تحت أقدام امرأة — أن تصفر يداه ... !

واصطلحا فى النهاية على الطلاق ... !

***

قال المأذون :

« وقلت للفتاة : أأنت على نية إبرائه رغبة فى الطلاق ؟

وزاغت نظرة الضحية العذراء من هنا الى هناك ، حتى استقرت على الرجل الجالس هناك ، ثم نكست رأسها . ولم تجب

قلت : إنك إنما تفصلين فى أمر مستقبلك ، فليس هنا لأحد عليك سلطان

فحدّقت فىّ طويلاً كأنما تلتمس المعونة ، ثم حولت النظر الى أخيها فاذا فى عينيه كلام طويل ، فأطرقت وهى تقول فى همس : « نعم لقد أبرأته ... ! »

والتفتَ إليهما الرجلُ يصوِّب النظر ويصعِّده ، ثم نطق بالكلمة الفاصلة ... !

وتحوّلتُ إلى الرجل فأنكرته ، وأقسم لكأنما لم أكن أعرفه من قبل ، وما كان فى بالى أنه صديقى عاطف . لقد انطفأ بريق عينيه كأنما ينظر من خلف زجاجة ؛ وغاض ماء الشباب من وجهه ، فما تراه إلا كوردة الخريف ؛ وقد أطلق لحيته ، كأنما تركتْ لطماتُ القدر فى عارضيه سوادَ حظه ؛ وكانت فى يده سبحة ، أحسَبُه كان يحصى عليها همومَه وأحزانَ نفسه ؛ وما رأيت شيئاً أبيض — فيما رأيت — إلا عمامته ... ! »

قلنا : « عمامته ؟ . . عَهدُنا به لا يلبس إلا الطربوش ... ! »

قال : « نعم عمامته ، فاستأنوا ... قلت له : ما فَعَلَتْ بك الأيام يا عاطف ؟

قال : ذاك ما ترى . ولقد أقسمتُ أن أفرغ لله ، فلم تعدْ لى فى الزواج إربة ، ولن ترانى إلا بين المسجد والبيت حتى ألقى منيتى ! حسبى ، حسبى ما لقيتُ من دنياى ... ! وانكبّ على سبحته يتمتم والحبات تتساقط فى الخيط واحدةً فوق واحدة ، ورأسه يهتز كأنه يقول : كذلك تتعاقب الأيام كما تتساقط الحبات حبة وراء حبة ، حتى تكون النهاية ، حتى يكون الموت ... !

وما وجدت عندى جواباً إلا أن أتحول وأدعه حيث جلس يداعب سبحته . أتراه كان يذكر الله ، أم يسب الدنيا ... ! »

لقد راح المسكين يبحث عن الزوجة الغنية ليضاعف بمالها ماله ، فآب فقيراً من مالها ومن ماله ؛ وذهب يسعى لأن يضاعف بالزواج مسرات الشباب ، فردّه الزواجُ شيخاً فى الثلاثين ! ؟

محمد سعيد العريان

صـــيد الغزال

بقــلم شفيق نقاش

فى صباح يوم من أيام أغسطس العصيبة ، كانت الغزالة ترعى فى جبل البازين Basin . تقضم الأعشاب اللينة برقة وهناءة ، وتلفت جيدها محدقة فى فطيمها الصغير ، ورفيقها الوحيد فى هذه الوهاد المقفرة ، وهو مضطجع قريباً منها على فراش وثير من البِجْلة

لقد أخذت البقع العفراء الساحرة تغشى جلده الناعم فتكسبه روعة وبهاء ؛ فهى معجبة به ، تحنو عليه ، وتحيطه بنظرات العطف كلما بدرت منه حركة دلت على خوف أو ألم ، وهو يتحفز للوثوب خلفها وجلاً كلما خطرت مبتعدة فى طلب العشب

صورة رائعة للأمومة التى تعطر جو الحياة الكئيبة ، والثقة التى تخفف من شقائها

رفعت الغزالة رأسها بسرعة البرق ، هل سمعت صوتاً ؟ ربما كان ذلك حفيف الرياح الجنوبية تخترق الغابة ؛ فالسكون الرهيب مخيم على الوادى ، والسكينة سائدة فى كل مكان

رنت الظبية بطرفها ، وألقت نظرة اطمئنان على رشأها ثم تابعت رعيها . وفجأة رفعت جيدها واشرأبت تجيل الطرف فى أنحاء الغابة ، وهى ترتجف من الخوف ... هناك صدى صراخ متواصل يخترق الوادى ، أصغت قليلاً فتأكد لديها نباح كلب يدنو رويداً من ركنـاهما الأمين

كان الوقت كافياً لمرحلة طويلة تطويها مبتعدة عن الصيادين . ولكن هناك وحيدها الظبي الألوف ، وأنيسها فى هذه الوحشة ، فمن ينقذه؟ هو لا يستطيع اللحاق بها ، فلمن تكل أمره ، ولمن تتركه ؟...

تنابحت الكلاب غير بعيد ، وتجلى للغزالة الخطر المحدق بهما ، فوثبت بضع خطوات الى الوادى تبحث عن ملجأ أو مهرب ! وهب رشأها مذعوراً وهو يبغم متعجباً

أغربت الظبية ثم ألقت نظرة وراءها ، فرأته يتتبعها بسيره البطىء ، وهو يتعثر متألماً من الجذوع الخاوية على الأرض ، والأشواك التى تعترض سبيله . تابعت الأم سيرها واستمر وحيدها لاحقاً بها يتعثر ويستغيث ، لأن البون أصبح شاسعاً بينهما

— كائن صغير من مخلوقات الله لا يقوى على احتمال الألم والخوف والتعب ، فوقع على الأرض ! تصايحت الكلاب وتقاربت ، واشتد نباحها . وأحدق الموت بهذين البريئين من كل جانب ؛ فدنت المسكينة من صغيرها تلحس بلسانها بشرته الرقيقة الناعمة ، واضطجع هو آمناً بقربها ، مطمئناً بعودتها ، ثم ما لبث أن أغمض أجفانه من التعب

فكرت الغزالة فى تخليص صغيرها من مخالب الكلاب ورصاص الصيادين ، وكأن صوتاً أهاب بها فرفعت رأسها ، وفتحت منخريها ، وحدقت طويلاً فى مصدر الصوت ، ثم نفرت مقتحمة الغابة ، قاصدة ناحية أعدائها . ولما اقتربت منهم وتأكد لديها اكتشافهم لها واقتفاؤهم أثرها ، غيرت وجهتها وشرقت بهم مبتعدة عن ولدها فأصبح فى مأمن من الشر

تضاءل النباح وراءها ، فوثقت من فوزها ، وولت وجهها شطر الشمال تود القيام بدورة تعيدها حيث تركت فطيمها ، ولكنها ما عتمت أن سمعت صوتاً جديداً يقابلها ، فانطلقت الى الأمام تجتاز الوادى

هذه صلصلة أجراس القرية تدوى فى الفضـــاء ويتجاوب صداها ، لقد أصبحت على مقربة من أكواخ الفلاحين . هنا أيضاً أعداء جدد لم تحلم بهم . سدت فى وجهها الطرق ، وأغلقت المفاوز ، وأحاط بها الصيادون من كل جانب . — رحمتك اللهم ! ألم تدع للشفقة مكاناً فى ذلك الوادى الزاهر حين خلقته ؟ ولا للرحمة موضعاً فى تلك القلوب حين كونتها ؟

الكلاب تفاجئها من كل ناحيـــة ، وسكان القرية يطاردونها رجالاً ونساء وأطفالاً ، يود كل منهم لو يظفر بها غنيمة باردة

تذكرت الظبية طلاها(١) فتجدد أملها بلقائه ، وسلكت طريق القرية مرغمة بين نبوح(٢) الفلاحين ودوى البارود

اعترضتها بحيرة قريبة ، فألقت نفسها فى الماء تشق صفحته ، وتسبح بقوة عجيبة . لقد خارت قواها ، ولم تعد سيقانها الضئيلة تساعدها على المضى فى طريق النجاة

ولكن الأمل العذب — سر الحياة — كان يهيب بها دائماً لاقتحام تلك الغمرات ، حتى وصلت الشاطىء فأبرت مطمئنة ، وتمثلت أنيسها يبحث عنها فى وحشته ، فهرعت تريد احتضانه . ولكن هل نجت المسكينة بعد هذا العذاب الطويل ؟

صياد جديد كان يترصدها فاستقبلها برصاص بندقيته ، فوقعت جثة هامدة . .

« عن الانكليزية بتصرف » شفيق نقاش

(١) الصغير من الظبي ومن كل شىء (٢) ضجة القوم وأصوات كلابهم